روايات مصرية للجيب

مغامرات س

نقطة الصفر

4

Looloo
www.dvd4arab.com

مواسم العودة

ما بين صيف وشتاء تولد الكلمات ، وما بينهما أيضًا تنمو وتشب عن طوقها ، تشيخ أحيانًا لكنها أبدًا لا تموت .. فالكلمات تولد لتعيش ، وتخلد ..

ما بين الذهاب والعودة يولد الحنين ، وتعربد الأشواق بين الجوانح .. تهفو العيون إلى الرؤية وتتوق الأنامل إلى ملمس الأوراق حتى يحين اللقاء ..

وفى اللقاء تتجدد الذكريات ، وتتفتح زهور المشاعر الجميلة .. والجديدة ..

هل أصبحت شاعرة دون أن أدرى ، بالإضافة لكونى صحفية أحيانًا ومجنونة دائمًا ؟!

ربما ، لكننا لا نكون شعراء بمجرد الشعور أو بالنية الحسنة .. هناك الأوزان والقوافى وبراعة الاستهلال وروعة التصوير وغيرها من أسلحة الشاعر التى لا أدعى امتلاكى لأى منها .. ولست من مدرسة الشعر المنثور أو النثر الشعرى ، إذ مازلت أرى أن روعة الشعر تظل فى كونه شعرًا ، وجمال النثر يظل فى كونه منثورًا ، وأى محاولة للمزاوجة بينهما تظل باطلة بطلان زواج (عنريس) من (فؤادة) فى (شىء من الخوف) !

ثرثارة أنا ، وإذا ذُكرت الثرثرة ذُكرت (نسرين الجبالى) ..

أما إذا ذُكرت (نسرين الجبالى) بدورها ، فلابد أن يُذكر الخطيب الغيور (هشام القاضى) ، والأب المشغول (فاروق الجبالى) ، ورئيسة التحرير الحانية (ألفت همام) ، والصديقات والزملاء والأم المربية والبواب ، وغيرهم من شخصيات عالم صغير ارتسمت ملامحه فى لقاءات سابقة ..

وما دمنا قد ذكرنا كل هؤلاء ، فنحن إذن على أبواب مغامرة أخرى من مغامراتى مع السيد (س) ، أو مغامراته معى ، أو من مغامرات كلينا مع المجهول ..

لن أتحدث عنه ، ليس لشعورى بأنه ـ رغم إيثاره البقاء فى الظل ـ يحتل دائرة الضوء بدلا منى ، أو أنه يستخدمنى لأغراضه الخاصة ماحيًا وجودى بوجوده ؛ كما حدث وسيطر علىّ هذا الشعور فى المغامرة الماضية ، ولكن لأننى لا أعرف عنه إلا بقدر ما يعرف من صاحبونى فى مغامراتى السابقة معه : لا شىء تقريبًا .. (أو لنعتبر أن هذه هى الحقيقة حتى نريح ونستريح !)

أما من يبدءون الرحلة معى ومعه من هنا ، فيجب أن يعرفوا عنه أنه رجل غامض ، يتصل بى من آن لآخر

بوسائل غريبة بعض الشىء ، ويبدو أنه يعرف عنى كل شىء فى حين أجهل أنا عنه أى شىء ..

التفاصيل عصى ذكرها فى المقدمة ها هنا ، لذا فالأفضل أن نختصر ونبدأ مغامرتنا الجديدة التى أطلقت عليها (نقطة الصفر) ..

يجب أن تدور مغامرة بهذا العنوان حول نقطة ، ويجب أن تحوى صفرًا ما ، هذه قاعدة لا فرار منها ، وإلا فلن يستحق الكتيب واحدًا على الألف مما دفع فيه ، إن أحداثًا لا تتعلق بعنوانها هى ليست من النوع الذى أتحدث عنه فى المعتاد .. وبالمناسبة يمكننى أن أصرح مبدئيًا ـ كأننى أهمس فى أذن قارئى من باب التشويق وجر الأقدام ـ بأن المغامرة تدور هذه المرة فى عالم الطفولة ..

كيف ؟!

بلغت الحد الذى أقول عنده فى كل مرة تفضلوا معى وستغرقون ..

ثم أضع ساقى فوق ساقى ، وأتراجع فى مقعدى ، وأعدل من وضع منظارى الطبى (لكم أحب أن أفعل هذا !) ، وأقول : القصة يا سادة يا كرام تبدأ كالتالى .. (لن أمل هذه العبارة الاستهلالية أبدًا) ..

* * *

١ ـ لم أكن هناك !

ظلام الليل الدامس لا يبدده ضوء عامود الإنارة الوحيد في نهاية الشارع ..

سكون تام ، والسيارات نائمة على جانبى الشارع الضيق ، أمام صف البنايات المتلاصقة على حدود الحى الراقى نوعًا ..

حاولت أضواء سيارة دلفت إلى الشارع فى بطء أن تضفى على المشهد لمسة حياة ، لكن الصمت والظلام كانا لها بالمرصاد ..

اقتربت السيارة أكثر من نهاية الشارع ، وازداد اقترابها بطئًا أمام بناية بعينها ، قبل أن يند عن قائدها هتاف ساخط :

ـ تبًا ، كم مرة طلبت من هذا الوغد ألا يضع سيارته مكان سيارتى ؟!

نظرت زوجته الشابة التى يغطى رأسها حجاب أنيق إلى حيث يعنى ، كانت سيارة جارهم تحتل المكان الذى اعتاد زوجها أن يبيت سيارتهم ـ تلك التى اقتنوها حديثًا بعد عناء لسنوات فى وسائل المواصلات المختلفة ـ فيه ، فقالت فى شىء من البرود :

ـ لهذا طلبت منك أن تعود باكرًا يا (عونى) ..

علمت أنه سيرد هاتفًا فى حنق :

ـ (كاميليا) ، إنك لا تقولين هذا عندما نكون فى زيارة والدتك !

رفعت كفها قائلة فى إرهاق :

ـ دعنا لا نبدأ الشجار المعتاد حول والدة كل منا إذن ..

غمغم وحنقه يتصاعد :

ـ أتفق معك فى هذا ..

وبينما التفتت هى إلى المقعد الخلفى لتنظر إلى طفلها الجالس فى استكانة ، ناظرًا عبر الزجاج المجاور له إلى المجهول البعيد ، كان زوجها يزمجر بكلمات ما ، لم تعرها أذنها ، متقدمًا بالسيارة بنفس البطء إلى نهاية الشارع حيث يرتفع عامود الإنارة الوحيد ، كنصب تذكارى أخرق ..

ـ هل نمت يا (لؤى) ؟!

تساءلت (كاميليا) ، والتفت إليها (لؤى) بعينين واسعتين ثاقبتين براقتين ، كأنه أحد أبطال (المانغا) اليابانى ، ثم إنه بعد هنيهة صمت هز رأسه نافيًا ..

حاولت (كاميليا) أن تتبسم لصبيها ذى السنوات الخمس ،

لكنها عجزت عن أن تفعل ، فعادت تنظر إلى الأمام راجية أن يبتلع الصمت والظلام هواجسها ومخاوفها .. أرسلت بصرها سريعًا إلى ساعة السيارة الرقمية التى أشارت إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، بينما انتهى زوجها من إيقاف السيارة فى فرجة ضيقة بين سيارتين ، قبل أن يطفىء المحرك ، وينظر لها النظرة التى تحمل معنى أن الوقت قد حان للعودة إلى المنزل ، برغم كل الخلافات التى نحتملها سويًا على مضض ، من أجل طفلنا الوحيد ..

أو الذى أصبح وحيدًا !

أمسكت كاميليا بيد طفلها الصغيرة ، ونظرت إلى (عونى) الذى اهتم بإغلاق أبواب السيارة جيدًا ، وبتأمينها والتأكد من ذلك أكثر من مرة ، ثم إنه قام بفتح حقيبة السيارة الخلفية ليخرج الغطاء القماشى الكبير ، وشرع فى تدليته وتسويته حول الجوانب فى بطء مستفز ..

زفرت (كاميليا) قبل أن تقول فى ملل انطوى على استنكار ضمنى :

ـ ليس من ضرورة لتغطيتها الآن ، إنك ستهبط لعملك فى السادسة صباحًا ، أى بعد ..

قاطعها (عونى) فى صرامة :

ـ لا أريد أن يعبث بطلاتها الحديث مستخدمًا موسى أو مفتاح أو ...

بادلته المقاطعة بأخرى ، متعمدة أن تكسو الحدة ألفاظها :

ـ إن الغطاء لن يعوق أحدًا عن ذلك ..

قال دون أن ينظر نحوها :

ـ عندها أكون قد فعلت ما على وأرضيت ضميرى !

عادت تزفر ، ونظرت إلى البناية التى لا تبعد عنهما أكثر من خطوات قليلة ، لكن الظلام أجج الخوف فى داخلها من الذهاب إلى هناك مع (لؤى) تاركة زوجها المزعج ، وعندما نظرت إلى ملامح طفلها الجامدة ، وعينيه الشاردتين ، تمدد الخوف فى داخلها أكثر ..

وقررت أن تنتظر (عونى) حتى يفرغ من مهمته البغيضة ..

طال الوقت ، وكان (عونى) يتعمد التباطؤ ضاغطًا على أعصابها ، لكنها احتملت فى صبر المكره ، حتى التصق الغطاء بجسم السيارة متخذًا شكلها الخارجى ، ونفض زوجها كفيه ، قبل أن يقترب منها ويعبث فى رأس (لؤى) وشعره الناعم

الطويل نوعًا ، متحاشيًا النظر نحوهما فى الوقت نفسه لأسباب خفية فى نفسه ، وإن كان يعلم أنها تتعلق بالراحة النفسية نحوهما ، تلك التى تتلاشى تدريجيًا مع الأيام !

مضت الأسرة الصغيرة نحو مدخل البناية القريب ، يتقدمها الأب المنهمك فى تعديل وضع المنظار الطبى فوق عينيه ، وخلف الأم القابضة على كف طفلها الصامت فى صمت ..

- ترى هل سيكون مستيقظًا الآن ؟!

تساءل (عونى) وهو ينظر عبر نظارته عاليًا إلى البناية الشامخة فى قلب الظلام حيث يقطن ، وحيث النوافذ والشرفات غارقة فى النوم إلا من واحدة أو اثنتين من خلفهما بعض الضوء الشحيح ..

- من ؟!

تساءلت (كاميليا) بدورها وقد انعقد حاجباها المزججان فى غير عناية ، غير أنها حدست نوع الإجابة التى ستتلقاها ..

- (بركات) ..

نوع الإجابة المستفزة التى ستتلقاها ..

- جارنا ؟!

تساءلت فأجابها :

- الوغد .. جارنا الوغد ، لا تنسى أبدًا أن تلحقى به هذا النعت .. فهو أقل ما يستحق ..

قالت (كاميليا) وهى تتوجس شرًا :

- (عونى) .. كن عاقلاً ..

هتف (عونى) غير عابىء بعلو نبراته :

- إنه لم يضع سيارته فى هذا المكان بالذات إلا ليغيظنى .. لقد نوهت عليه أكثر من مرة الا يفعل لكنه أغبى من أن يفهم .. حتى لو كان نائمًا الآن فسأوقظه حتى ..

وجدت (كاميليا) نفسها تقاطعه :

- لا نريد أن نفضح أنفسنا بين السكان يا (عونى) ..

ووجدته يرد بنبرات أعلى ، كأن اعتراضها قد حفز غدة العناد فى أعماق شخصيته :

- وماذا فعلنا حتى نفضح أنفسنا ؟! سنفضحه هو حتى يكون عبرة لأمثاله ممن يهوون إثارة أعصابى بتصرفاتهم غير المسئولة ..

كادت تستجديه لكنها هتفت :

- (عونى) رجاءً لا ....

ولم تتم عبارتها ..

ولم يقاطعها (عونى) ..

ولم يتفوه صغيرها (لؤى) بكلمة ..

ثلاثتهم وقفوا صامتين ، ينظرون فى ذهول إلى الشخصين الغارقين فى ظلام مدخل البناية ، بينما يلمع نصل السلاح الأبيض فى يد أحدهما ..

ـ النقود بسرعة ..

نطق بها أحدهما فى غلظة ، مادًا كفه ومحركًا أصابعه أمامهما ، فى حين اختفت ملامح وجهه تمامًا فى السواد الذى يغشى كل شىء ..

استغرق استيعاب الموقف بعض اللحظات ، قبل أن يحاول (عونى) أن يقول :

ـ لكنى .. لكنى لا أحمل الكـ .. الكثير ..

أشار الآخر ـ حامل السلاح ـ إلى (كاميليا) قائلاً بنفس السرعة ، وبغلظة أشد :

ـ الذهب إذن ..

ـ لا ..

هتفت بها (كاميليا) وهى تقبض على السلسلة الذهبية الثمينة والغليظة التى تتدلى فوق صدرها ، بأصابع أحاطت بها خواتم يبدو عليها الثقل وتلمع فيها فصوص مختلفة من أحجار كريمة ..

ـ صه !

همس الأول ، وتابع الثانى :

ـ لو علا صوت مرة أخرى ، فإن أحدكم سيصاب بالأذى حتمًا ..

رغم أن الليلة لم تكن حارة ، إلا أن (عونى) مسح عرقًا ما فوق جبهته ، قبل أن يلتفت إلى زوجته قائلاً ، وهو يزدرد لعابه بصعوبة ازدراد شفرة موسى حادة :

ـ أعطهما ما يطلبان .. يبدو أنهما لا يمزحان ..

لوح حامل السلاح بسلاحه مؤكدًا على قوله :

ـ نحن لا نمزح بالتأكيد ..

تراجعت (كاميليا) إلى خلف بخطوة لا إرادية ، ساحبة معها ابنها الذى ما زالت تقبض على كفه ، وقد ارتعدت كل عضلة فى جسدها ..

ـ هيا ، نحن لا نملك الليلة بطولها ..

تقدم الذى لا يحمل سلاحًا منها ، فى حين احتضنت هى (لؤى) أكثر ، كأنها تحميه من خطر مبهم ، واستمر (عونى) يطاردها ـ محافظًا على انخفاض نبراته ـ بعبارات من نوع :

ـ هيا يا (كاميليا) .. أعطهما ما يريدانه .. سنصاب جميعًا بالأذى لو لم نفعل ..

ازدادت قوة احتضانها لابنها ، حتى لم يظهر منه سوى عينيه اللتين لم تبتعدا عن الرجلين المتسربلين فى عباءة الليل ..

عيناه الواسعتان ..

الثاقبتان ..

البراقتان ..

كأنه أحد أبطال (المانجا) اليابانى !

مازال الرجل يدنو منها دون أن تظهر له ملامح محددة ، ومازال زوجها يهمس بإرشاداته نحو الأمان ، ومازالت هى تحاول التراجع محتضنة (لؤى) الذى ..

ـ هيا أيتها المرأة .. أعطنا الذهب وسنترككم جميعًا فى أمان ..

كادت تبكى من الرعب ، ومن القهر ومن سلبية زوجها تجاه تعرضهم لخطر الموت نفسه ..

ـ اخلعى زينتك بالتى هى أحسن ..

تتراجع ..

يحتبس البكاء فى مقلتيها وحنجرتها ..

يتقدم الرجل من الظلام إلى الظلام ..

ثم ..

الصراخ ..

اتسعت العيون الناظرة ..

دهشة !

سقط الرجلان على أرضية مدخل البناية وهما يصرخان ..

ألمًا !

ـ ما هذا ؟!

تساءل (عونى) فى ذهول ، وهو يرى الجسدان ينتفضان كالذبيحين على الأرض ، بينما استطاعت (كاميليا) أن ترى على ضوء شحيح منبعث من اللامكان وجهيهما ـ بلا ملامح محددة ـ وقد نزف الدم من الأنفين والعينين والأذنين ..

كانا لا يزالان يصرخان من الألم ، عندما ابتلع (عونى) ريقه ، وتمالك نفسه وخواطره قبل أن يهتف :

ـ إنها معجزة .. سأبلغ شرطة النجدة فى الحال قبل أن ..

ولم يتم عبارته ، بل أخرج هاتفه المحمول على الفور وشرع فى طلب رقم الشرطة ، بينما تحرر (لؤى) من ذراعى أمه ، وهو لا يزال ينظر إلى الجسدين المنتفضين فى تشنجات مؤلمة وإليمة ..

ـ (لؤى) ..

ندت النداء عن (كاميليا) أخيرًا ، بعد أن تمالكت نفسها بعض الشىء ..

ـ .. (لؤى) ..

الصبى ما زال ينظر إلى الرجلين المنتفضين ، بعينيه الواسعتين .. الثاقبتين .. البراقتين .. اقتربت منه الأم ، وحولت ـ بالقوة ـ وجهه نحوها ، ناظرة إلى عمق عينيه مباشرة .. عندها ، وعندها فقط ، توقف الجسدان عن التشنج ..

وعن الصراخ ..

كان جسد (كاميليا) هو الذى انتفض كشعيرة ، سائلة ابنها :

ـ ماذا فعلت بهما ؟!

وحدها كانت تعرف الإجابة ..

وحدها أدركت كل شىء ..

وفى حين أيقظ الصراخ المتألم بعض الناس ، فأنارت بعض النوافذ والشرفات المطلة على الشارع المظلم ، وانفتح الكثير من أبواب البناية ، وفى حين كان (عونى) يتحدث فى هاتفه المحمول :

ـ أجل يا سيدى .. العنوان هو (مدينة نصر) ..

ويملى المتحدث على الطرف الآخر باقى العنوان ، كانت دقات قلبها تتصاعد ، وتتصاعد ، وكأنها طبول الحرب القادمة !

★ ★ ★

لولو

٢ ـ سقوط !

أسوأ ما فى الزواج هو عملية الاستعداد له ، أعنى تلك الفترة البغيضة من التحضيرات المختلفة لكل شىء ، بدءًا من اختيار ألوان دهانات الحوائط التى لا تطابق اختياراتك الأصلية أبدًا ، وانتهاءً باختيار الشكل المناسب لدعوات الزفاف وتسليمها إلى مستحقيها الذين لا يحضرون أبدًا !

ما زال الأمر الأخير بعيدًا عنى نسبيًا ، أمامى أنا و(هشام) بعض الشهور من العذاب فى الانتهاء من الشقة وتجهيزها بالأثاث المناسب ..

ـ متى نسافر إلى (دمياط) ؟!

يلح علىّ (هشام) بالسؤال هذه الأيام ، وأنا أتهرب ولا أجد مشكلة كبرى فى تأليف الأعذار أو اختلاق الحجج المختلفة ، صحيح أن فكرة السفر إلى (دمياط) تعنى أن نحظى أنا وهو بأفضل الخيارات وبأقل الأسعار فيما يتعلق بالأثاث تحديدًا ، لكنى لا أحب فكرة تضييع كل هذا الوقت الثمين ، ساعات السفر نفسها ثم المشاهدة والمقارنة واتخاذ القرار الصعب ـ من أجل بعض الأخشاب المصبوغة التى ستتخذ أماكنها فى منزلى الجديد ..

تعجبنى فكرة الزواج الغربى ، إنهم لا يهتمون بالشكليات هذا الاهتمام الأعظم الذى نوليه نحن لأمور أراها تافهة ، ويضعون العمل والترقى فى المقام الأول قبل أى شىء آخر ..

لكن ، من أنا حتى أجهر برأى كهذا فى مجتمع وضع على جبهتى شريطًا لاصقًا مكتوبًا عليه بحروف واضحة (مجنونة) ؟!

من أنا ؟!

يقول (هشام) :

ـ ربما نضطر للذهاب إلى هناك أكثر من مرة ، عملية الاختيار لن تكون سهلة على الإطلاق ..

وأقول أنا :

ـ أعلم ، لكن .. أليس الوقت مبكرًا قليلاً ؟!

يقول فى رومانسية :

ـ أعد الأيام حتى يجمعنا منزل الزوجية !

وأقول هاربة منها ومنه :

ـ واصل العد ، لكن عليك أن تتحلى بالنفس الطويل ..

يقول :

ـ أنت سخيفة !

وأقول :

ـ أعلم !

يسألنى :

ـ متى نسافر إذن ؟!

وأجيبه :

ـ لدى بعض العمل فى الجريدة ، أنهيه أولا ثم نسافر رأسًا !

يتبرم :

ـ قلتِ إنك سوف تنهين كل شىء اليوم !

وأعطيه بعض الأمل :

ـ لن يطول الوقت .. أعدك بهذا !

لو يعلم أن لا شىء ورائى من الأصل لأنهيه ، اللهم إلا الرواية الضخمة المفتوحة بجوارى على السرير !

لو يعلم ..

لا أظنه سيحتمل منى شيئًا كهذا ..

أعلم أننى لا أطاق ، لكن ماذا يمكن أن يفعل المرء بنفسه عندما يعلم عنها أمرًا كهذا ؟!

المعايشة أو الانتحار ، ولأسباب دينية لا يجهلها أحد أرفض الاختيار الثانى ، على أن أتعايش مع نفسى وأن أحاول أن أحبها ولا مانع من بعض المحاولات الفاشلة فى التقويم !

ـ متى ستذهبين إلى الجريدة ؟!

منذ أنهيت كليتى ، واستلمت شهادتى ، وسلمتها إلى السيدة (ألفت) لتسير فى إجراءات تعيينى لديها فى الجريدة ، وأنا أصحو متأخرة بعض الشىء ..

إنها الواحدة والنصف ظهرًا الآن وأنا استيقظت منذ نصف الساعة فقط !

ـ سأرتدى ملابسى الآن وأذهب ..

أعلم أننى لن أفعل ..

ـ ومتى تعودين ؟!

ـ أعتقد أننى سأتأخر قليلاً ..

ـ يمكننى اصطحابك إلى المنزل عندما تنتهين من الـ ...

قاطعته :

ـ لا أريد أن أعدك بهذا ، لنترك كل شىء للظروف ..

لو كنت فى مكانه لأغلقت السماعة فى وجهى دون أدنى شعور بالندم !

ـ حسن ، هاتفينى عندما تجدين لديك الوقت ..

وأردف :

ـ أو الرغبة !

ـ كثيرًا ما أحادثك دون أن يتوفر لى أىُ من الأمرين !

أنا فظيعة ، أعلم هذا ..

ـ إلى اللقاء يا حبيبتى ..

ـ إلى لقاء ..

أحيانًا أشعر أن (هشام) سيصادف امرأة أخرى تعوضه عن الرومانسية الغائبة فى حياته معى ، لكنى دائمًا أتناسى هذا الشعور وأتجاهله ..

أنا هى أنا ، وهو أحبنى كما أنا ، وخطبنى كما أنا ، وسيتزوجنى كما أنا دون أن يتغير فى الأمر شىء ..

وضعت سماعة الهاتف فى مكانها ، وعدت إلى (مائة عام من العزلة) ، رواية (جابرييل جارسيا ماركيز) التى خلب بها لبى ، وسحرنى أيامًا طويلة لم تنته حتى الآن .. ولجت

عبر السطور إلى عالم القرية الصغيرة المنعزلة فى أحضان الجبل ، واصبحت جزءًا من النسيج الخيالى المتين الذى أجاد فيه (ماركيز) وأبدع ، حتى ..

حتى ند الصراخ !

صراخ امرأة حاد مفعم بالجزع والذهول والرعب إن صح اجتماع الثلاثة ، كان ينادى اسمًا ما يصعب استبيانه من حدة الصوت الرفيع كحد السكين ..

قفزت فى لحظة من فوق السرير ، وأنا أفكر :

الصراخ القريب الذى كاد يحطم زجاج نافذة غرفتى آت من طابق علوى قريب فى البناية التى أسكن فيها ..

هرعت إلى النافذة وأنا أفكر إنه بالتأكيد صوت الساكنة الجديدة التى استأجرت شقة الطابق السابع الشاغرة ، والتى التقيت بها بالأمس فتبادلنا تحية وابتسامة ، وهممت باللعب مع طفلها ـ ثلاث سنوات تقريبًا ـ لكنها أسرعت بالصعود على وعد بلقاء وتبادل زيارات ..

علجت بيدى مزلاج النافذة وأنا أفكر : لابد أن تكون هى ؛ لأنه لايوجد نساء غيرها يسكن فى الطوابق العليا من بنايتنا ، التى أعرف سكانها بحكم أننى نشأت وترعرعت بها ..

فتحت النافذة وأنا أفكر : لابد أن كارثة ما حدثت ، استنتاج ذكى كالعادة !

نظرت من النافذة وجف معين أفكارى ، الشارع الذى تطل عليه بنايتنا ساكن تمامًا سواء فى النهار أو فى الليل ، لكنه - فى هذه اللحظة بالذات - يعج بالناس الذين لا تعرف من أين أتوا ليتحلقوا أمام مدخل بنايتنا .. وإذا تحلق الناس الذين لاتعرف من أين أتوا حول شىء ما يصعب استبيانه حتى من نظرة الطائر التى أنظر بها ، فالأمر أوضح من أن يفسر ..

إنها كارثة لا محالة !!

تركت النافذة ووضعت فوق منامتى الوردية التى أرتديها مبذل الصيف الخفيف المصنوع من الستان ، وهرعت خارجة من باب الشقة ..

الهمهمة بالأسفل أمام مدخل البناية عالية حتى إننى أسمعها واضحة من هنا أمام الباب ، وهناك صوت البكاء الحار والصراخ الحاد لا تزال مندفعة من أعلى عبر السلم ، مع خطوات تتهب طريقها هابطة إلى الأسفل ، نظرت بسرعة عبر حاجز السلم ورأيت جارتى الجديدة تهبط فى سرعة رهيبة مغالبة انهيارها بصعوبة ، ولم أطق أنا أن أنتظرها فسبقتها هابطة إلى أسفل ، حيث تجمهر أناس كثر أمام المدخل ..

خضت بين الجماهير الغفيرة ، واخترقت أذنى أصوات مطمئنة نوعًا ..

- الحمد لله .. جاءت سليمة ..

- اتركوه ربما كانت عظمة ما قد انكسرت فى جسمه ..

- لكنه لا يبكى ..

- ربما كان ارتجاجًا فى المخ إذن !

- سبحان المنجى من المهالك ..

خضت فى الزحام ، وعندما بلغت مركز دائرة التجمهر كان هناك ..

طفل جارتى - ثلاث سنوات تقريبًا - يجلس فى هدوء مستكين ، وهو يمسك بمكعب ألعاب ملون بين أصابعه الدقيقة ، لاهيًا عما حوله كأن لا شىء فى الدنيا يعنيه سوى لعبته ..

واستعصى فهم الأمر على عقلى جزئيًا رغم أن المؤشرات الأولية كانت واضحة نوعًا ما !

كانت الأم قد بلغت مدخل البناية بملابسها المنزلية التى نسيت أنها ترتديها ، وقد انهارت عند آخر درجة فى السلم فعلاً ..

ـ لابد أن هذه هى أمه ..

قالها واحد من المتجمهرين فى ذكاء يحسد عليه ، والتفت الواقفون نحو الصارخة الباكية الملتاعة كأنها فقدت عزيزًا ، وتحول إليها انتباه الجميع فتجمهروا حولها ..

تطوع شاب قوى البنية تبرز عضلات صدره بفعل ألعاب القوى عبر قميص ضيق ، فحمل الطفل كأنه هواء نحوها فيما انهمرت عليها عبارات المشاركة الوجدانية كالمطر :

ـ لا تقلقى يا سيدتى .. إنه بخير !

ـ انظرى إليه ، ما من خدش صغير فى جسمه ..

ـ هناك من يحرس الأطفال فى مكان ما ، حارس لا نراه لكنه موجود .. صدقينى !

ـ خذى الحذر فى المرة القادمة ، هذه المرة عدت على خير ..

تناولت الأم طفلها المستمر يلعب بمكعبه كأن لا أحد حوله ، وأخذت تنشج وهى تحتضنه وتقبله ، فيما أخذت أنا أراقبها مانعة نفسى من البكاء بصعوبة ..

لكم هى قوية وجياشة وهائلة مشاعر الأمومة ..

هل سأكون أمًا حنونًا كهذه ؟! أم أن فقدانى لأمى وأنا فى المهد سوف يجعلنى أمًا فاشلة ؟!

على أن أتزوج أولاً حتى أعرف !

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ..

كان العم (خضر) الفخور بنفسه وبمنصبه الاستثنائى كبواب لبنايتنا يضرب كفًا بكف أمام مدخل البناية بجوارى وهو ينطق بالعبارة فى دهشة لا تخفيها ملامحه ، فالتفتّ إليه سائلة :

ـ هل سقط الطفل من الطابق السابع يا عم (خضر) ؟!

نظر إلىّ للحظة ، قبل أن يجيبنى قائلاً :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ..

عدت أسأله ؛ لعله لم يفهم صيغة سؤالى الأولى :

ـ ما الذى حدث للطفل يا عم (خضر) ؟!

أطل الذهول من عينيه طويلاً وهو يأرجح بصره بينى وبين الناس الذين بدءوا فى التفرق حول بئر السلم ، بعد أن تطوع أحدهم بمرافقة الأم وطفلها إلى الأعلى حتى تصل فى أمان ، ثم إنه قال مغالبًا ذهوله فى النهاية :

ـ لقد رأيت كل شىء بعينى هاتين ، اللتين سيأكلهما الدود !

عقدت ساعدىّ أمام صدرى قائلة :

ـ أخبرنى بما رأيت إذن قبل أن يلتهم الدود عينيك ..

عاد يضرب كفيه ببعضهما هاتفًا :

ـ ستتهمیننى بالجنون ..

هززت كتفىّ قائلة فى لا مبالاة :

ـ ما من جديد سيحدث إذن ..

فتل بإصبعيه طرف شاربه ، وبيده الأخرى أشار إلى المقعد الخشبى القريب قائلاً :

ـ كنت جالسًا هناك كالعادة أدخن النارجيلة ، عندما سقط الصبى من السماء فجأة .. فوجئت به أمامى ، فانتفضت من جلستى كالملسوع ، لكن ..

عقدت حاجبى :

ـ لكن ماذا ؟!

هوى ساعداه إلى جانبيه :

ـ .. الولد لم يلمس الأرض !

عقدت حاجبى أكثر :

ـ ماذا تعنى ؟!

وضع راحته على جبهته :

ـ يا إلهى .. كما أخبرك بالضبط ، كان ارتطامه بالأرض محققًا ، لكنى رأيته بعينى هاتين يسبح فى الهواء قبل أن يحط على الأرض بكل بساطة ، كأنه كان جالسًا على وسادة غير مرئية !

امتزج حاجبى من فرط الانعقاد :

ـ أى نوع من التبغ تدخن يا عم (خضر) ؟!

أقسم بأغلظ الأيمان أنه :

ـ لا أقرب المكيفات .. إنه حجر معسل عادى ، يمكنك أن تشمى رائحته ..

صادق هو ، فرائحة المعسل الطبيعى الخالى من المكيفات تملأ مدخل البناية بالفعل !

لكن :

ـ ماذا الذى يمكن أن يعنيه هذا إذن ؟!

مال نحوى عم (خضر) ، وهمس :

ـ فى الغالب ، هو مس من الجن والعياذ بالله ..

لن يجد (خضر) تفسيرًا آخر ، هذا مفهوم ..

ـ فى بلدنا طفل مثله نطلق عليه اسم (المبروك) ، يمشى على الهواء والماء ويشفى المرضى و ...

تركته يهذى ومضيت صاعدة نحو منزلى ، وعقلى يجاهد فى محاولة لإضفاء بعض المنطق على ما حدث .. الطفل سقط من الطابق السابع ، أمه اكتشفت الحادث فصرخت فى نفس لحظة انتباه عم (خضر) والمارة لما حدث ، الطفل سليم لم يمسسه ضر ..

هل يمكن أن يحدث هذا بالفعل ؟!

الخبر يصلح لصفحة الحوادث حقًا ، لكنه خبر رخيص ما لم يصاحبه تفسير أنيق ..

احتاج لسؤال مصدر طبى عن إمكانية سقوط طفل سليم معافى من ارتفاع شاهق كهذا .. من أفضل من أبى ، جراح المخ والأعصاب الأشهر (فاروق الجبالى) ؟!

ربما احتجت أيضًا لزيارة جارتى الجديدة ، ماذا كان اسمها ؟!

(جيهان) على ما أعتقد ، وقد قدمت لى طفلها يوم التقينا باسم .. (حاتم) ؟!

بلغت باب الشقة عند هذا الحد من الخواطر ، وتذكرت لحظتها فقط أننى تركته مفتوحًا فى غمرة اهتمامى بالهبوط السريع ..

يجب ألا أفعلها ثانية ، ويجب أيضًا أن أهتم بإحضار مفتاح الشقة معى ، فلو أن الباب انغلق وأنا بالأسفل لاحتجت إلى نجار حتى أستطيع الدخول من خلاله ثانية ..

كل شىء على ما يرام هذه المرة لحسن حظى ..

دلفت إلى المنزل وأغلقت الباب خلفى جيدًا .. فى حجرتى أمسكت بسماعة الهاتف لأطلب رقم أبى ، وألقيت بنظرة سريعة على رواية (ماركيز) المغلقة على السرير ..

ما هذا ؟!

أتذكر أننى تركتها مقلوبة على الصفحة التى كنت أقرأها !

وضعت السماعة قبل أن أكمل طلب الرقم ، وأمسكت بالرواية الضخمة بين أصابعى ، قلبت الصفحات بحركة سريعة ، وبينها وجدت القصاصة الورقية الصغيرة ..

رفعت القصاصة الصغيرة بإصبع يدى ، وكان ما توقعته صحيحًا ..

إنه السيد (س) ..

مرة أخرى ، وليست أخيرة !

★ ★ ★

٣ ـ هوايتى الرسم ..

نظر (هشام) إلى القصاصة الصغيرة ، وقرأ محتواها بصوت مسموع :

ـ « الدخول إلى نقطة الصفر ليس كالخروج من نقطة الصفر .. »

ولم ينس أن يقرأ التوقيع أسفل العبارة :

.. « السيد (س) .. » !

ثم إنه رفع عينيه نحوى قائلاً :

ـ أعتقد أن الأمر قد جاوز كل حدوده المعقولة وغير المعقولة ..

وضعت ساقًا فوق أخرى فى جلستى على أريكة مكتبه الوثيرة ، وتساءلت بأنفة :

ـ ماذا تعنى ؟!

انفجر ملوحًا بالقصاصة فى وجهى ، وأعتقد أنه لم يكن ليتورع عن لكمى فى وجهى لو لم يكن مكتبه يفصل بيننا :

ـ معنى وجود هذه القصاصة فى كتاب كنت تقرئينه فوق

سريرك واضح ، السيد المزعوم وجوده والذى يعرف كل شىء عن هذا قد دلف إلى الشقة بطريقة ما !

هززت رأسى قائلة فى برود مشئوم :

ـ استنتاج بارع !

لم يستطع أن يكظم غيظه فصرخ فى وجهى :

ـ لكن هذا جنون أكيد ..

والتقط أنفاسه للحظة ، قبل أن يفسر متجملاً بالصبر :

ـ أعنى أن هذا الشخص ـ لو صح وجوده ـ قد يمثل فى المستقبل خطرًا ما بقدر ما يمثل لنا المساعدة الآن ، شخص له القدرات التى تدعينها من ظهور واختفاء ومعرفة لكل شىء يمكنه أن يصبح أقوى رجل فى العالم ، وأكثر رجال العالم شرًا .. وهو شىء لا يبعث على الراحة إطلاقًا أن يكون على اتصال بمن ستصبح زوجتى !

هززت كتفى وقلت دون أن أفكر فى عبارته كثيرًا :

ـ دعنا ننظر للأمور على المدى القصير ، ما معنى عبارته الغريبة هذه من وجهة نظرك ؟! وهل لها علاقة بحادثة (أحمد) ؟!

فكر للحظة ثم قال :

ـ (أحمد) من ؟! نعم ، تقصدين ابن جارتك الذى سقط من الطابق السابع سليمًا ؟!

ثم إنه نظر إلى القصاصة الورقية مليًا قبل أن يجيب :

ـ فى الحقيقة لا أدرى .. العبارة أكثر غموضًا من أن تدل على أى شىء ..

قلت وأنا أبدل من وضع ساقىّ فوق بعضهما :

ـ لا أدرى ما سبب مجيئى إليك أنت أولاً ، لكنى بمجرد عثورى على القصاصة رأيت أن أنسب ما يمكن فعله هو عرضها عليك .. كنت سأصعد إلى جارتى أولا ثم أذهب لأبى فى المستشفى من أجل معلومات ، أصيغ بها حادث الطفل فى خبر صحفى صغير وتافه !

قال (هشام) وهو يدقق النظر فى القصاصة أكثر :

ـ إنها لا تخبرنا بالكثير .. الخط المكتوبة به العبارة أنيق واستخدم فى كتابتها قلم جاف عادى .. وقد تم قطع القصاصة من ورقة فلوسكاب A4 عادية ..

قلت أجاريه فى تفسير الماء بعد الجهد بالماء :

ـ نعم ، وهى تتحدث عن نقطة صفر ما ، لا يتساوى الدخول إليها والخروج منها ..

لعله لم يفطن إلى لهجتى الساخرة ، فقد ظل يحدق فى القصاصة متأملاً ومفكرًا ، حتى رن هاتف مكتبه فرفع السماعة وتحدث :

ـ آلو .. أجل يا (عادل) .. جيد ، أرسل لى بالتقرير فى الحال .. سأرسل لك بالمحضر الذى استجوبنا فيه المجنى عليهما .. ستجد أقوالاً غريبة لملأم لا تلق لها بالا ، أنت تعلم حديث الأمهات هذا عن قدرات أطفالهم الخارقة .. فى طفولتى كانت أمى تروى للجميع كيف أننى أحلم بأشياء تتحقق ، كانت هذه قدرة خارقة ادعيتها لنفسى وصدقتها المسكينة !

حفّز قوله وضحكه بعدها حواسى ، فاستقرت جميعها ـ من الأولى للسادسة وما بعدها ـ لسؤاله فور أن يفرغ من مكالمته ..

ـ .. بشأن حادثة القتل التى وقعت فقد وصلتنى الصور وسأرسلها لك ، أما الأحراز فلم تصلنى بعد .. وسأعمل على أن تصلك فى أسرع وقت ..

وانتهت المكالمة ..

ـ هل هناك حادث آخر يتعلق بطفل يمتلك قدرة خاصة ؟!

نظر (هشام) إلىّ متسائلاً بدوره فى استنكار :

ـ هل تصدقين هذا الهراء ؟! فى طفولتى كانت أمى تروى لى ...

قاطعته دون أن يؤنبنى ضميرى :

ـ سمعت القصة ، فقط أجبنى عن سؤالى بطريقة أفهمها ..

تراجع فى مقعده قائلاً :

ـ إنه حادث وقع بالأمس فى (مدينة نصر) .. أسرة صغيرة مكونة من أب وأم وطفل صغير فى السادسة من العمر تعرضت للسرقة بالإكراه .. لصان من المسجلين خطر لدينا هددهم بسلاح أبيض بأن يخرجوا ما فى حوزتهم من نقود ومقتنيات ثمينة ، وفجأة ...

تحفزت أكثر فتقدمت إلى طرف الأريكة ، بينما تابع هو :

ـ فجأة سقط اللصان أرضًا وهما يتلويان من الألم ينزفان من كل فتحات جسميهما ، السبب مجهول حتى الآن بالطبع لكن الأم ادعت أن هذا عائد لقدرة خارقة يمتلكها طفلها !

رددت مبهورة :

ـ قدرة خارقة ؟!

ثم تساءلت :

ـ وماذا حدث بعدها ؟!

هز (هشام) كتفيه وهو يقول فى تهوين :

ـ لا شىء ، اتصل الأب بالشرطة فأرسلنا إليه بقوة على وجه السرعة .. استطعنا اللحاق باللصين قبل أن ينفقا ، وسيصلنى الآن تقرير الطبيب المعالج بشأنهما ، هذا كل شىء ..

أثار المصباح فى رأسى ، وترجمت رغبتى الفورية إلى طلب فورى :

ـ أريد عنوان هذه الأسرة من فضلك يا (هشام) ..

نظر إلى من جديد قبل أن يقول متهكمًا :

ـ أحيانًا أعشق معاملتك لى كمصدر صحفى أكثر من معاملتك لى كخطيب بائس !

ابتسمت وقلت :

ـ تمن لى الكثير من العمل إذن يا عزيزى ..

هنا دوت الطرقات فوق الباب ، ودلف الجندى ذو الخدين الغائرتين حاملاً أوراقًا ما :

ـ التقرير يا (هشام) باشا ..

مر (هشام) بناظريه سريعًا جدًا فوق الأوراق ، ثم أبدى أمارات استغراب :

ـ هذا غريب بالفعل !

سألته بالطبع :

ـ ما الغريب ؟!

وأجابنى حتمًا :

ـ فشل فريق كامل من الأطباء فى تحديد سبب ما جرى للصين ، وهناك علامات على نزيف داخلى أيضًا ..

كررت عبارته دون إرادة :

ـ هذا غريب بالفعل !

قال الجندى منتهزًا الصمت الذى ران :

ـ فى الخارج من يطلب مقابلة سيادتك يا (هشام) باشا ..

ـ أنا بالذات ؟!

سأله (هشام) ، فأجاب الجندى :

كلا يا باشا ، لقد طلب مقابلة أحد المسئولين فى المباحث الجنائية ، وسيادتك فقط موجود الآن ..

سأل (هشام) الجندى مجددًا :

ـ لم يخبرك بسبب الزيارة ؟!

فأجاب هازًا رأسه بالنفى :

ـ ليس بالتحديد .. يقول إن الأمر مهم ، ومعه طفلة صغيرة يا باشا !

همست لنفسى :

ـ طفلة صغيرة ؟!

ثم هتفت راجية (هشام) :

ـ أدخلها من فضلك يا (هشام) ..

فطن (هشام) لما أعنيه من نظرة خاطفة تبادلناها ، فأمر الجندى بإدخالهما فى الحال .. دلف رجل أصلع الرأس يرتدى ملابس بسيطة ، وهو يقبض بأصابعه الضخمة على كف طفلة أبدع الخالق فى تكوينها ..

شعر أشقر كخيوط الشمس الحريرية .. قسمات ناعمة منسجمة كأنها لدمية من البلاستيك .. العينان ـ والعينان بالذات كانتا أجمل ما فيها ـ زرقاوان كمحيطين بلا بداية ولا نهاية ..

ـ مرحبًا يا أستاذ .. تفضل بالجلوس ..

قالها (هشام) متخذًا سمت ضابط الشرطة الرصين ، مشيرًا للرجل بالجلوس على أحد المقاعد الشاغرة ، لكن الرجل ظل واقفًا وهو يقول فى ارتباك :

ـ العفو ياسيدة المقام .. أنا أدعى (عوض السيد حسان) ، أعمل موظفًا بالمحافظة ، وأسكن فى ٢٧ شارع إحسان عبد القدوس المتفرع من شارع ..

هتف به (هشام) :

ـ هذا عنوان الجريمة التى اكتشفناها صباح اليوم !

ازداد ارتباك الرجل وهو يقول مومئًا برأسه :

ـ أجل يا سيدى .. الجريمة وقعت فى البناية التى أسكن فيها ، فى الطابق الثانى ، وأنا أسكن فى الطابق الثالث .... هتف (هشام) وقد استبدت به الحماسة :

ـ أنت إذن جار القتيلة (منة عبيد) ، التى وجدنا جثتها هذا الصباح ..

هز الرجل رأسه بالإيجاب وقد ألجم الارتباك لسانه ، فتابع (هشام) سائلا :

ـ هل أنت هنا بهذا الشأن ؟!

أجاب الرجل متلعثمًا :

ـ تقـ .. تقر .. بيًا !

صاح به (هشام) زاجرًا :

ـ ماذا تعنى ؟! هل لديك معلومات عن الحادث أم أنت هنا لإضاعة وقتى ؟!

أربك أسلوب (هشام) الرجل أكثر ، لكنه حاول أن يتماسك حتى يخرج منه الكلام مفهومًا :

ـ فى الحقيقة .. الأمر لا يتعلق بى أنا ، لكنه يتعلق بـ (نيروز) ..

وأشار الرجل إلى الطفلة الصامتة ، وانتبهت لأول مرة إلى الكراسة التى تحملها أسفل إبطها الصغير ، مطوية على نفسها ، عندما سحبها الرجل وفردها أمام (هشام) مواصلا :

ـ انظر بنفسك إلى ما أعنيه يا سيدى ..

لم أستطع كبح جماح فضولى ، فنهضت ووقفت خلف ظهر (هشام) أراقب ما يريده الرجل أن يراه ..

قلب (هشام) الغلاف ، وصفحة بيضاء ، ثم أخرى بيضاء ، ثم أخرى مزدانة برسم طفولى لكنه غريب ، والغرابة أقل ما يمكن أن يوصف به فى الحقيقة ..

هناك جسد امرأة فى ثوب أزرق على الأرض ، وباللون الأحمر هناك بركة من الدماء إلى جوارها ، وهناك سكين مستقر فى الصدر ، بينما اليدان والقدمان مقيدة بالحبال ، وقطع الأثاث متناثرة هنا وهناك ، أما الحائط فليس عليه سوى لوحة لطبق فاكهة ..

كل شىء دقيق وظاهر لكنه بخطوط طفولية تشبه أسلوب (بيكاسو) البدائى الشهير ..

خيال غريب لطفلة ساحرة الملامح فى هذا السن ..

رفع (هشام) ناظريه إلى الرجل ، فقال الأخير وفى نبرته خوف رهيب :

ـ لعلك قد فهمت ما أريد قوله دون أن أحتاج إلى الشرح يا سيادة المقدم ..

مد (هشام) يده إلى مظروف أزرق مستقر على مكتبه ، وأخرج منه كومة من الصور الفوتوغرافية اللامعة ، وشهقت فى دهشة عارمة عندما رأيت أحدها ..

امرأة فى ثوب أزرق على الأرض ، سكين فى الصدر ، بركة دماء ، الحبال ، قطع الأثاث ، حتى طبق الفاكهة فوق الجدار ..

التفاصيل دقيقة للغاية ، وعلى الظرف عبارة بالفلوماستر لم أرها إلا الآن (صور مسرح الجريمة ، القتيلة منة عبيد) !

نظرت إلى الصورة الفوتوغرافية ، ثم الرسم ، ثم الطفلة نفسها ، الوادعة كهرة نائمة ..

ـ هل اطلعت الطفلة بصورة ما على موقع الجريمة يا سيد (عوض) ؟!

تساءل (هشام) فى صرامة ، فقال الرجل نافيًا فى شدة :

ـ كلا البتة .. والأدهى أنها رسمت هذه الصورة صباح أمس ، أى قبل اكتشاف وقوع الجريمة أصلا ..

هتف (هشام) فى صرامة :

ـ هذا غير ممكن ..

هز الرجل كتفيه ، وقال بنبرات راجفة :

ـ هذا ما حدث ، وهى ليست المرة الأولى.. إن (نيروز) تهوى الرسم وتجيده ، وعلى الرغم من أن سنها لم يتجاوز الخمسة أعوام ، إلا أنها فى خلال ثلاث سنوات تقريبًا قد رسمت الكثير من الحوادث التى وقعت بالفعل ..

نظر (هشام) إلى رسمها مجددًا وقال :

ـ لكن هذا لن يساعدنا فى العثور على الجانى ..

سعل الرجل ، وقال :

ـ لكنه قد يساعد فى منع جريمة جديدة يا سيادة المقدم !

ـ وكيف هذا ؟!

نطقنا بها أنا و (هشام) فى نفس الوقت ، فأشار الرجل إلى كراسة الرسم قائلاً :

ـ اقلب الصفحة وسترى بنفسك يا سيدى ..

قلب (هشام) الصفحة ، ورأى بنفسه ورأيت بنفسى ..

امرأة أخرى سمراء البشرة ، ملابسها رثة ، مقتولة بنفس الطريقة !

السكين فى الصدر والدم والحبال ، وعلى الجدار هذه المرة لوحة قرآنية يستحيل أن ترسمها من كانت فى مثل عمر (نيروز) الجميلة بهذه الدقة ..

ـ هذا ما رسمته (نيروز) صباح اليوم ..

غمغم (هشام) متسائلاً :

ـ من تكون هذه ؟!

أجابه (عوض) :

ـ فى الغالب هى خادمة المرحومة (منة) ، إنها ترتدى هذا الثوب دائمًا ..

هز (هشام) رأسه متفهمًا ، وعاد يغمغم :

ـ وهى مختفية بحثنا عنها طوال النهار ، الأمور تبدو منطقية رغم أنها لا تبدو كذلك على الإطلاق !

اقتربت أنا من (نيروز) الصامتة فيما يشبه الجمود ، جثوت أمامها على ركبتى ورسمت ابتسامة مصطنعة فوق وجهى ..

ـ كيف حالك يا (نيروز) ؟!

لم تجبنى ، وقال أبوها :

ـ لم تنطق حتى الآن ، ربما لأنها تعيش وحدها طوال الوقت ..

رفعت إليه عينين متسائلتين ، ففسر :

ـ انتقلت أمها إلى رحمة الله وهى لا تزال فى المهد ..

نسخة مصغرة من (نسرين الجبالى) إذن !

سمعت (هشام) يتحدث فى الهاتف :

ـ أجل يا (عادل) .. سنعيد استجواب زوج القتيلة (منة عبيد) .. سأخبرك بالتطورات الآن فور أن أوافيك بصور مسرح الجريمة .. اتفقنا ، دقائق وستجدنى لديك .. سلام ..

نهض مسرعًا ، وهم بالمغادرة لكننى استوقفته :

ـ (هشام) ..

نظر إلىّ ، فقلت :

ـ عنوان الأسرة الصغيرة ..

ـ يا لك من صعبة المراس ..

ـ حقاً ؟!

وبينما كان يبحث لى عن العنوان ، كنت أنا أنظر إلى (نيروز) وأبيها الحائر فى موقفه الآن ، وأبتسم لها دون أن تبادلنى الابتسام ..

* * *

٤ ـ قلب الأم ..

فتحت لى الباب امرأة منتفخة العينين ، فى ملابس منزلية بسيطة ووشاح يغطى شعر رأسها إلا قليلا ..

ـ كيف يمكننى أن أخدمك ؟!

سألتنى وهى ترمقنى من فوق لأسفل ، وكنت أنا قد أعددت كذبة مناسبة إلى حد ما :

ـ فى الحقيقة أنا ..

الصحافة أمر يثير ريبة الكثيرين ، وهو ذريعة كافية لإغلاق الباب فى وجه أى متحدث ينتحل مهنة بشعة كهذه !

ـ أنا الدكتورة (نسرين الجبالى) ، أرسلتنى الشرطة من أجل الصغير (لؤى) ..

تحتاج الكذبة إلى بعض المصداقية ، لكنى أعتمد على ما هو أكثر من مجرد حبكة ..

ـ تفضلى يا دكتورة ..

.. على احترام البسطاء لمهنة الطب الجليلة ، وهو رهان غير قابل للخسارة .

وسعت لى المرأة ـ علمت من (هشام) قبل حضورى أن اسمها (كاميليا) ـ طريقًا ، فدلفت دون أدنى تردد ..

بقدر ما تثق بنفسك يثق بك الآخرون ، رهـان آخر غير خاسر أبداً !

لم يكن الوقت مناسبًا للزيارة على الإطلاق ، إنـه الوقت الذى يضع فيه الناس أرديتهم من الظهيرة ، لكن فضولى الصحفى لا يؤجل ، خاصة فى ظروف غريبة كهذه ..

جلست على مقعد أشارت إليه المرأة :

ـ يمكنك الجلوس هنا ، ماذا تشربين ؟!

أشعة الشمس الزاحفة نحو الغروب تغمرنى عبر زجاج النـافذة المجـاور .. أستطيع أن أرى مـن خلالهـا الدقـائق المعلقة فى الهواء من حولى ..

ـ لا شىء ..

أشحت بذراعى وأنا أقولها ، ثم أكملت :

ـ دعينا نبدأ العمل على الفور ..

جلستُ على مقعـد أمـامى لا تغمـره أشـعة الشـمس ، وتنهدتُ فى الظل قائلة :

ـ لا بأس .. ماذا تريدون منا بعد ليلة أمس المرهقة فـى المباحث الجنائية ؟!

لو أن (أجاثا كريستى) رأتنى وأنا أقول مشهرة سبابتى فى وجهها :

ـ الحقيقة ..

.. لألهمتها بشخصية صحفية مشاغبة يطاردهـا بطـل غامض لا هوية له !

ـ الحقيقة ولا شىء سواها ، سيدة (كاميليا) ..

قالت (كاميليا) بعد إذ تنهدت ثانية :

ـ أخبرتهم بالحقيقـة لكن أحـدًا لـم يصدقنى .. ظنونـى مخرّفة ..

بقدر ما تثق بنفسك يثق بك الآخرون :

ـ لست هنا إلا للتأكد من صدق ادعاءاتك ..

فى هذه بالذات كنتُ محقة !

ـ هل أنت طبيبة أطفال ؟!

سألتنى ، فاضطربت للحظة وأنا أقول :

ـ فى الحقيقة .. تستطيعين قول هذا ..

واتخذت من الهجوم خير وسيلة للدفاع :

ـ الآن أخبرينى ، أية قدرة خارقة التى يمتلكها طفلك ليجعل رجلين بالغين ينزفان إلى حد فقدان الوعى ؟!

أصابتها مباشرة السؤال ، فصمتت وهى تقاوم رعدة اعترتها ، قبل أن تقول وقد طفرت عيناها ببحيرات راكدة من سائل شفاف :

ـ صدقينى ، أنا نفسى لا أدرى !

وضعت ساقًا فوق أخرى ، وحاجبًا فوق آخر متسائلة :

ـ ماذا تعنين ؟! من يدرى إذن ؟!

عادت للصمت والتنهدات قبل أن تقول :

ـ بدأ الشك يراودنى بعد أيام قليلة من ولادته ، لم يكن يبكى ويصرخ كثيرًا مثل بقية الأطفال فى المهد ، ذهبت به لأكثر من طبيب لكنهم طمئنونى على حالته الصحية بعد كثير من الفحوصات والتحاليل ، لكن ..

صمت وتنهدت ، ثم :

ـ لكن نظراته كانت تخيفنى ، كنت أصحو أحيانًا قبل شروق الشمس وأجده مستيقظًا ، عيناه تحدقان فى السقف

كأنه يتأمل فى شىء ما .. مع نموه كنت أتحاشى النظر إلى عينيه ، محاولاتى لتجاهل ألعابه المحطمة وزجاج غرفة نومه المتهشم وجهاز التلفزيون الذى انفجر دون أن تبدر عنه أية أمارات للعدوانية أو العنف ، هذه المحاولات بعضها نجح وبعضها باء بالفشل !

هذا غريب ، أغرب ما قابلته فى حياتى فيما يتعلق بطفل ..

ـ لكن الطامة الكبرى كانت عندما انتفخ بطنى بالحمل الثانى منذ عام تقريبًا ..

عقدت حاجبىّ وفشلت فى منع نفسى من التساؤل :

ـ هل لـ (لؤى) أشقاء ؟

تجاهلتنى واستمرت تروى قصتها :

ـ مرت علىّ شهور الحمل كأقسى ما يمكن أن تتحمله امرأة ، كان (لؤى) يتابع تكور بطنى بعينيه ، فأشعر بأنفاسى تغادرنى ، وبضربات قلبى تتسارع ، وبرأسى يكاد يتفجر ألمًا ودمًا وضوضاء .. لم أكن أهدأ إلا فى ابتعادى عنه ، ففاقم هذا من شكوكى بالطبع ..

لم أستطع منع نفسى من طرح السؤال : هل تبالغ المرأة قليلاً ؟

ومن طرح الوجه الآخر للسؤال : هل المرأة مجنونة ؟

ـ كانت الولادة متعسرة بشدة ، لولا القرار المصيرى السريع الذى اتخذته الطبيبة بإجراء جراحة قيصرية ، لكنت الآن فى عداد الأموات ..

استنتجتُ أن :

ـ هل ولد الجنين ميتًا ؟

لمحتُ بسمتها فى الظل وهى تهمس فى حنان أم لها قلب يخفق :

ـ كانت طفلة .. طفلة باهرة الجمال لطالما تمنيتها ، عصفورة جنة من السماء ، ملاك نائم فى لفافات المهد ..

يبدو أن الأمر كان أسوأ من استنتاجاتى :

ـ ماذا حدث لها إذن ؟

كادت تبكى ، أو تنهار :

ـ لاحقها (لؤى) بنظراته ، وبعد أيام وجدتها ميتة فى لفافتها ..

رباه ، هذا أسوأ بكثير .. بألف مليون مرة تقريبًا ..

لم يعد هناك مجال للحديث بعد ما قيل ، إن الأمر أوضح من أى محاولات تفسير خرقاء ..

انحدرت على وجنة الأم دمعة شاردة ، فى نفس اللحظة التى لمحت فيها ذلك الجسد الضئيل الواقف بجوار باب حجرة مفتوح ..

طفل يستند بظهره على الحائط ، ويرمقنى بكراهية ..

عيناه واسعتان .. ثاقبتان .. براقتان ..

(لؤى) دون أدنى شك ..

لكن .. ما الذى يحدث لى ؟!

لماذا أشعر بضباب يغمر عقلى ؟ وبألم خفيف يتسلل إلى أطرافى ؟ وبـ ...

كلا ، لابد أن أغادر فى الحال دون لحظة تأخير واحدة ..

انسللت خارجة فى هدوء دون أن أنبس ببنت شفة ، متحاشية النظر إلى الصبى أو أمه الباكية العائشة فى ذكرياتها وعذابها ..

الأم التى لم تكن مجنونة ، والتى لم يكن حديثها يحوى أدنى مبالغة ..

* * *

وضعت جارتي الشاى أمامى ، وحاولت أنـا أن أقول فى كياسة :

ـ آسفة على هذه الزيارة دون سابق موعد ، سيدة (أماني) ..

ابتسمتْ (أماني) جالسة أمامى ، فيما كان صبيها يلهـو بنفس المكعب الذى كان فى يديه عندما سقط فى الظهيرة ، وقالت :

ـ لا عليك يا حبيبتى ، اعتبرى المنزل منزلك .. وأنا منـذ الآن (أماني) فقط يا (نسرين) فأنا أمقت الألقاب بشدة ..

لم تكن زيارتى لأسباب بريئة بالطبع ، ولم أكن على استعداد للتظاهر بهذا رغم أن الليل لا يزال بكرًا ، ورغم أن زيارتى لم تبدأ إلا منذ خمس دقائق ، أو أقل ..

ـ كيف حاله الآن ؟

أشرتُ إلى الصبى المنهمك فى اللعب ، فنظرت (أماني) إليه قائلة وقد اسود وجهها من مجرد الذكرى البائسة لما جرى :

ـ (أحمد) ؟ إنه بخير والحمد لله .. رباه ، كان قلبى سيقف عندما سقط من الشرفة ..

ابتسمتُ على سبيل المشاركة :

ـ أعلم ما يشعر به قلب الأم ..

قالت فى نفى واثق :

ـ لن تعلمى حقًا حتى تصبحى أمًا ..

لم أكن مهتمة بالمشاركة الحقيقية إلى هذا الحد الذى أبدو عليه ، معذرة يا جارتى العزيزة :

ـ لكن ، كيف حدث ما حدث ؟

هزت كتفيها وقالت مغالبة الذكرى البائسة لما جرى :

ـ لا شيء .. كنت فى المطبخ أعد طعام الغذاء لزوجى قبل عودته من العمل ، وكان الصغير يلهو فى الصالة حيث ترينه الآن .. لم أشعر بحركته ، أو لعله قلب الأم الذى نتحدث عنه قد أنبأنى بأن شيئًا غير طبيعى يحدث ، أو سيحدث ..

الباقى يسهل استنتاجه :

ـ خرجت إلى الصالة ، وفزعت عندما وجدت باب الشرفة مفتوحًا .. من خلاله استطعت رؤية (أحمد) وهو جالس فوق حافة السور .. ولا تسأليني عن ماهية شعورى عندما رأيته يسقط من هذا الارتفاع الشاهق ..

قلت فى تفهم لم يكن فى موضعه :

ـ رأيتك بنفسى عند مدخل البناية ..

ثم إنى سألت :

ـ لكن ، كيف استطاع (أحمد) بقامته الضئيلة هذه أن يتسلق سور الشرفة ؟

قالت ناظرة إليه :

ـ إنه يدهشنى فى أشياء كثيرة من هذا القبيل ، حتى عندما كان طفلا فى المهد ، كنت أدخل إلى حجرة نومه فلا أجده ، يجن جنونى بالطبع وفى النهاية أجده على الأرض نائمًا فى استكانة .. كيف سقط ؟! متى ؟! لماذا لم يصرخ مثل بقية الأطفال ؟! أسئلة لم أجد لها إجابة حتى الآن ..

ثم قالت ناظرة إلىّ :

ـ لكن أكثر ما أدهشنى حقًا كان حادثة اليوم .. لو روى لى أحدهم ما حدث فلن أصدقه ..

غمغمت ناظرة إلى (أحمد) :

ـ لديك كل الحق ..

ولا أدرى ، لماذا خيل إلىّ أنه لا يجلس على الأرض ، وأن هناك فراغ ما بينهما ، كأنه يجلس على وسادة من الهواء ..

محض هلاوس ، أعلم .. ولكن ..

هنا رن هاتفى المحمول حيث لا أنتظر مكالمات من أحد كالمعتاد ، فرفعت شاشته ونظرت لأجد رقمًا غريبًا لا أعرفه كما يحدث غالبًا ..

أشارت (أمانى) إلى الشرفة المفتوحة قائلة فى ذوق :

ـ تستطيعين التكلم هناك لو أحببت ..

ـ أشكرك ..

وحملتُ نفسى حملا إلى هناك ..

ـ ألو .. من ؟

ـ الصحفية اللامعة (نسرين الجبالى) ؟

صوت أجهله ، لكنه ليس أجشا يتعمد صاحبه تغييره .. أى أنه ليس السيد (س) لمن لم يفهم ما أعنيه ..

ـ هى أنا .. من معى ؟

ـ يجب أن نلتقى ..

من هذا ؟

ـ أنا لا ألتقى بمن لا أعرفه يا سيدى ..

ـ ستعرفيننى .. أنا الدكتور (سعد الحاوى) ..

كأنه (تشى جيفارا) شخصيًا يتحدث عن نفسه ..

ـ لا أذكر أنى سمعت اسم (سعد الحاوى) هذا من قبل ..

كرر :

ـ يجب أن نلتقى ..

سألته دون اهتمام :

ـ بشأن ماذا ؟

وجعلنى جوابه أهتم رغمًا عنى :

ـ نقطة الصفر ..

ـ ماذا ؟

ـ نلتقى الآن ، ما رأيك ؟

أتاه رأيى فى سؤال آخر :

ـ أين ؟

وأثار رده جنونى :

ـ فى نقطة الصفر ..

ـ أنت تثير جنونى ..

ـ أعلم ، إليك العنوان ..

بناية ما فى نهاية (الحى السادس) / (مدينة نصر) ، أملانى العنوان كاملاً ثم قال :

ـ لا تتأخرى ..

وقبل أن أرد انقطع الخط ..

خطوت إلى خارج الشرفة فى بطء وسرب من نحل مزعج فى رأسى يطن ، رفعت ناظرىّ إلى جارتى الجديدة وقلت معتذرة :

ـ آسفة يا عزيزتى ، ولكنى مضطرة للمغادرة .. أنت تعلمين أن الصحافة مهنة بلا مواعيد ..

قاطعتنى :

ـ لم أقصد التلصص عليك لكن صوتك كان عاليًا جدًا ..

نظرت إليها فى استفهام ، ورأيت فى عينيها خوفًا من مجهول غامض ..

ـ سمعتك تذكرين اسم (سعد الحاوى) .. هل هذا صحيح ؟

كانت تتلصص علىّ إذن ..

قلتُ مبهوتة :

ـ هذا صحيح .. هل يعنى هذا شيئاً ما بالنسبة لك ؟

أشارت إلى (أحمد) قائلة :

ـ إنه الطبيب الذى أجرى لى عملية الولادة ..

صعقتنى المعلومة ، ثم :

ـ عيادته تقع فى (الحى السادس) ..

أملتنى بقية العنوان كاملاً ، بينما ابتلعت أنا لسانى ولفنى الصمت من أعلى رأسى لأخمص قدمى ..

ـ .. كنا نسكن فى هذه المنطقة البعيدة قبل أن ..

لم أسمع بقية ما تقول ..

وعندما نظرت إلى (أحمد) هذه المرة ، أقسمت فى نفسى أننى رأيته يرتفع فى الهواء ، كأن الجاذبية لا تعنيه ـ ولا يعنيها ـ فى شىء ..

* * *

٥ـ الأطـــلال ..

هبطتُ من سيارة الأجرة عند نهاية شارع مهجور يطل على صحراء ..

منذ سنوات ليست بعيدة كانت (مدينة نصر) بأسرها قطعة من الرمال القاحلة فى شمال العاصمة ، لكن العمران زحف إليها ببطء حتى أصبحت من أهم مناطقها وأكثرها جذبًا وجاذبية ، ومع هذا ظلت هناك بعض المناطق التى يتجاور فيها العمران مع الصحراء ـ برغم الحرب الضروس المستمر بينهما ـ مثل هذه بكل أسف !

مضتْ السيارة بسائقها الذى حصل على مبلغ فلكى نظير التوصيلة ، وامتد طريق غير معبّد جيدًا أمامى ؛ كثعبان يبدأ أسفل قدمىّ وينتهى عند اللانهاية نفسها ..

وحيدة فى مكان بعيد ، المنطقة من حولى غير مأهولة ، فقط بعض البنايات التى ما زال أغلبها تحت التأسيس ..

الليل لا يزال فى بداياته لكنه مع ذلك يثير فىّ الكثير من الرعب ، خاصة مع أصوات الكلاب والذئاب المنبعثة من بعيد ليس بعيدًا إلى هذا الحد ..

ليس هناك من أسأله عن رقم البناية المطلوبة ، ليس من مولود ابن يومين يصرخ كما يقولون فى المأثور الشعبى (اللفظ العامى أكثر تعبيرًا وشاعرية بالمناسبة !) ، لذا فقد كان علىّ الاعتماد على اجتهادى الشخصى وحده دون سواه ..

سرت وخوفى من خلفى .. لو صادفت من قتلنى ودفننى ها هنا لما شعر أحد ، ولما استطاع أحد أن يجدنى أو يجد الجانى .

ما من لوحات رقمية على واجهات البنايات القليلة المنتصبة فى وجهى كفيلان خرافية ، ولو أن الحظ لم يخدمنى ، عندما وجدتُ الرقم المنشود مكتوبًا بالجير الأبيض الواضح فوق البناية التى أعنيها بالتحديد ، لكنت قد اتخذت قرارى بالعودة إلى دارى فورًا .. (كيف سأجد وسيلة مواصلات أعود بها فى هذا المكان القفر ؟! من يعرفوننى جيدًا يعرفون عنى أننى لا ألقى بالاً لهذه التفاهات !) ..

إنها ضالتى أخيرًا ، بناية من أربعة طوابق تم الانتهاء من بنائها على عجل ، جميع نوافذها موصدة وجميع شرفاتها مهجورة ، ومصباح عمود الإنارة أمامها يضىء وينطفئ مع أزيز يصدره سلكه النحاسى بين الإضاءة والانطفاء ..

المشهد يثير الخيال لينسج ألف قصة مرعبة خاصة مع ظلى الطويل الممتد خلفى على أسفلت الشارع ، وأنا شاخصة ببصرى نحو الرعب المتجسد ..

أين (ستيفن كنج) الآن ليستقى مادة قصة جديدة من هذا الجو الموحى ؟

لم أستغرق كثيرًا من الوقت فى التفكير ..

اتخذت قرارى ونفذته على الفور ..

خطوت إلى الداخل فاحتوانى ظلام ورائحة كريهة جعلتنى أكاد أتقيأ ، لمحت على الضوء الشحيح جثث فئران وقطط متحللة فى بئر السلم ، رفعت كفى وغطيت أنفى متمادية فى قرارى بأن أخوض مجاهل المغامرة إلى آخرها ..

وضعت قدمى فوق درجات السلم المتآكلة وشرعت فى الصعود ، طبقًا للعنوان الذى لدىّ سوف أصعد إلى الطابق الثالث ..

ما زالت الرؤية مشوشة أمامى ، والخواطر متضاربة فى بحر عقلى ، لكن إحساسى أنبأنى بوجود إجابات جميع الأسئلة فى المكان الذى أصعد حثيثًا نحو بلوغه ..

الطابق الثالث ..

بابان متقابلان ، أحدهما موصد بقفل من الخارج ، والآخر مفتوح يطوحه هواء أجهل مصدره ، مع صرير مفاصله المعدنية الصدئة ، وتأرجح لافتة لا يثبتها سوى مسمار واحد فى قمته ..

اقتربت ، واستطعت على الضوء الضعيف استبيان المكتوب على اللافتة التى التهمها القدم :

(دكتور سعد الحاوى ، أخصائى أمراض النساء والتوليد) ..

أنا إذن على أعتاب المكان المقصود ، برغم أن الأمر يتجاوز ما تخيلته بكثير ..

دفعت الباب المفتوح بيدى ، ودلفت إلى العيادة ..

عفوًا ، أعنى أننى دلفت إلى أطلال عيادة كانت ..

المكان فى الداخل مظلم ، ليس هناك سوى بقايا الضوء الضعيف جدًا المنبعث من عمود الإنارة أمام البناية ؛ العمود ذى المصباح الذى ينير وينطفئ وينز ، لكنى لم أكن فى حاجة إلى وحدة إضاءة - من التى يستخدمونها فى التصوير ليلاً - حتى أدرك حجم الفوضى العارمة التى تعترى المكان من أقصاه إلى أقصاه ..

خيوط العناكب لامست وجهى .. الغبار تسلل إلى أنفى وأثار فىّ الرغبة فى العطس ، فعطست فى قوة .. شعرت بحذائى يدوس على ملفات وأوراق ومقاعد مهشمة وأدوات طبية لم أستبن كنهها برغم كونى ابنة لطبيب .. هناك ريح باردة جعلتنى أقشعر ؛ نسمات أجهل مصدرها خاصة أننا ما زلنا فى الصيف !

تقدمت فى الظلام ، ولامس رأسى شيئًا ما .. بحركة لا إرادية قبضت أصابعى على ما لامس رأسى ، ورفعت عينى أستبين ماهيته فوجدته حبلاً غليظًا تعترضه أنشوطة ..

بلغة أكثر بساطة وأقل شاعرية : مشنقة !

- لم تتأخرى فى الحضور ..

الصوت ، وخيط الضوء آتيان من حجرة فى نهاية المدخل ..

تقدمت نحوهما وقد نسيت كل ما يمكننى نسيانه عن الخوف وما يشبهه !

- .. أحب الذين لا يتأخرون عن مواعيدهم ..

تقدمت وتوقفت عند مدخل الغرفة فاخترقت بؤرة الضوء عينى لتعشيهما .. رفعت ساعدى أمام عينى أتقى الألم والمفاجأة ، واستمر القائل يقول :

ـ .. إنهم مثلى ، أناس نادرون .. واستثنائيون ..

استطعت أن أفتح عينى بعد هنيهة ، ونظرت فى بؤرة الضوء سائلة :

ـ من ؟!

رأيته ، يجلس على كرسى هزاز يأرجحه أمامًا وخلفًا .. يمسك ببطارية صغيرة تشع بالضوء فى يده .. يرتدى بذلة من الصوف الردىء لم أستبن لونها ، لكنى لم أستطع تحديد ملامح وجهه من النظرة الأولى ..

ـ أنا من هاتفك منذ قليل أيتها الصحفية اللامعة ..

تدريجيًا أستطيع رؤيته ..

أصلع الرأس .. ضيق العينين ... طويل الأنف ... رفيع الشفتين .. نحيل القوام .. يتحدث بثقة متهكمة ..

ـ الدكتور (سعد الحاوى) ..

سألته ، فأجاب مواصلاً تأرجحه :

ـ بكل سرور وتواضع ..

عدت أسأله :

ـ ماذا تريد منى ؟!

أجابنى بسرعة :

ـ لا شىء .. أنت من تريدين ولست أنا !

عدت أسأله :

ـ وكيف يمكنك أن تعرف ما أريد ؟!

أجابنى بسرعة :

ـ أعرف كل شىء ، وأعرف أنك ساعية فى كد وراء الحقيقة !

يعرف كل شىء ؟! هل هو ...

رباه إن اسمه يبدأ بحرف الـ ....

ـ .. من هو السيد (س) هذا ؟!

أذهلنى سؤاله ، ولم أجد ما أرد به سوى تسمرى فى وقفتى كبلهاء حجرية ..

ـ .. انتظرى ، هل هناك رجل غامض يسعى خلفك بالحقائق ويمنحك حمايته وتوجيهاته ؟!

رجل يعرف عنك كل شىء وتجهلين عنه كل شىء ؟!

الغريب أننى وجدت لدى القدرة على القول :

ـ معرفة هذا ليست صعبة .. إننى صحفية ، و ....

قاطعنى :

ـ لا أقرأ الصحف ولا أى شىء آخر .. لكنى لست السيد (س) الذى تقصدينه برغم أن اسمى يبدأ بهذا الحرف السعيد !

كيف عرف أننى أفكر فى كونه هو ؟!

أجابنى فأذهلنى :

ـ أعرف أنك تفكرين فى كونى هو ، وأعرف كل ما يدور فى عقلك قبل أن تتفوهى به ..

هل يقرأ الأفكار ؟!

أذهلنى فأجابنى :

ـ نعم .. أنا أقرأ الأفكار يا عزيزتى !

حتى قدرتى على التفكير توقفت لحظتها ، أصبح الذهول وحده سيد الموقف ؛ موقفى بالطبع ..

ـ .. مرحبًا بك أيتها اللامعة فى نقطة الصفر ..

استعاد لسانى قدرته الأولية على تكرار الكلمات :

ـ نقطة الصفر ؟!

لوح (سعد الحاوى) بذراعيه قائلاً بطريقة استعراضية منفرة :

ـ النقطة التى لا يتساوى الدخول إليها والخروج منها .. لا يتساويان على الإطلاق ..

ربما كان ما يحدث لى حلمًا ، فالواقع أبسط بكثير مما يحدث لى !

قال (سعد الحاوى) :

ـ أنت لا تحلمين ، والواقع ليس بسيطًا كما تعتقدين فى كثير من الأحيان المؤسفة ..

هتفت فيه ..

ـ كفى .. ماذا تريد منى ؟!

ران صمت ، قال بعده :

ـ أنت تبحثين عن حقيقة أطفال يمتلكون قدرات غريبة .. صحيح ؟! (لؤى) .. (أحمد) .. و(نيروز) .. وغيرهم كثير .. لقد كنت الطبيب الذى أجرى عملية ولادة لكل هؤلاء الأطفال .. كنت فى استقبالهم جميعًا عند دخولهم إلى الحياة ..

هاجمته وقد احترقت أعصابى :

ـ أنت السبب فيما جرى لهم ، أليس كذلك ؟!

ـ استنتاج بارع برغم أنى لم أقرأه بين أفكارى بعد ..

فى بعض الأحيان أتكلم قبل أن أفكر ..

ـ لست مسئولاً مسئولية مباشرة عما يحدث لهم ، لقد كنت ضحية مثلهم تمامًا ..

بدأت أرتب أفكارى لأواجهه بالمزيد من الهجوم ، لكنه سبقنى بالتحدث وقد نجح فى قراءة أفكارى من جديد :

ـ كلا ، لست الطبيب المجنون الشرير الذى يجرى تجارب غريبة على الحوامل اللاتى يزرنه للكشف أو المتابعة ، ولم أستخدم مرضاى كحيوانات تجارب ..

هاجمته قبل أن أفكر :

ـ ماذا فعلت بهم إذن ؟!

هزّ كتفيه الناحلين قائلاً فى بساطة :

ـ لم أفعل بهم شيئًا ..

عدت أصرخ دون تفكير :

ـ من المسئول عما حدث لهم إذن ؟!

وعاد يهزّ الكتفين ويجيب فى بساطة :

ـ لا أحد .. إن القدر لا يختار ممثلين عنه بالإنابة دائمًا ..

ـ تعنى أن هؤلاء الأطفال وغيرهم قد اكتسبوا هذه القدرات وحدهم ؟! دون تدخل من أحد ؟!

قال :

ـ أعنى أن القدر جعل أمهاتهم يأتين بأنفسهن إلى النقطة التى ينفجر منها وإليها كل شىء ..

وأردف :

ـ .. نقطة الصفر !

صمتّ لاهثة فى محاولة لاستيعاب كلامه ، ولم يكن هناك مفر من طرح السؤال :

ـ ما هى نقطة الصفر هذه ؟!

صمت ، ثم أتى صوت (سعد الحاوى) عميقًا كقاع المحيط ، أو أشد عمقًا :

ـ نقطة التوحد .. مركز التلاقى .. بؤرة الانفجارات المتجددة .. منبع الطاقة الصافية ..

لاحقته بالسؤال :

ـ ما معنى هذا ؟!

فلاحقنى بالإجابة :

ـ ربما تحبين رؤيتها بنفسك ..

اشتعل فضولى ، فهززت رأسى بالإيجاب دون ذرة من التردد :

ـ موافقة ..

ابتسم من خلف ضوء بطاريته الذى يلقى ظلاً داكنًا على صفحة وجهه ، وقال :

ـ خمنت هذا برغم أنك لم تفكرى قبل أتخاذ القرار ..

ثم إنه أشار إلى اليمين متابعًا :

ـ .. إنها تقع هناك ، خلف هذه النافذة ..

نظرت إلى حيث يشير ، ووجّه هو ضوء البطارية إلى الحائط الذى تتوسطه نافذة موصدة بلوح من الخشب الرقيق ..

هنا ترددت للحظة ، ثم حسمت أمرى وتقدمت على هدى الضوء ..

ـ .. تذكرى فقط أن الدخول إلى نقطة الصفر ..

أتقدم أكثر ..

ـ .. ليس كالخروج منها أبدًا ..

أتقدم دون تفكير ..

ـ .. أبدًا ..

وبرغم كل شىء ..

قبضت على لوح الخشب من الجانبين ..

جاهدت لنزعه من موضعه الذى ثبت فيه بالمسامير ..

جاهدت وجاهدت ..

أنّت عضلاتى الضعيفة لكنى لم أستسلم حتى ..

حتى استجاب اللوح أخيرًا وانجذب نحوى ..

انخلع من مكانه تمامًا فى النهاية ..

أنزلته من مكانه ، وتدفق من ورائه الضوء الباهر .

سقط اللوح من يدىّ إلى الأرض ، وتدفق من ورائه الضوء الباهر ..

تجمدت ، وغمرنى الضوء الباهر ..

ارتفعت من فوق الأرض وانجذبت نحو الضوء الباهر ..

أصبحت قطعة من الضوء الباهر ..

ورحلت بعيدًا ..

بعيدًا ..

بعيدًا ..

★ ★ ★

٦ـ الخروج من نقطة الصفر ..

فى يدى زهرة بنفسج نضرة ..

عبيرها سحر وآية ..

أرتدى ثوبًا من الأبيض المتطاير ..

أسير حافية القدمين فوق صفحة الماء ..

وأنظر بعيدًا إلى الربيع ..

تداعبنى الريح وأداعبها ..

تقبل السحابات رأسى بالأمطار ..

تحط العصافير على كفى وكتفى ..

والأطفال من بعيد يضحكون ..

يلعبون ..

ينادوننى ..

يناشدوننى بالاقتراب واللعب ..

تقول لى (نيروز) :

ـ أريد أن أرسم زهرة بنفسج ..

ويلوح لى (أحمد) من فوق سحابة بعيدة ..

بينما (لؤى) يثير موجات فى صفحة الماء بنظرات العين الواسعة ..

آخرون ..

(سعد الحاوى) رأس معلق فى مشنقة تمتد إلى السحاب ..

لكنه يتأرجح ويبتسم ..

أتقدم عبر الماء إلى نهايات لا تنتهى ..

أنظر إلى السطح الشفاف الرائق لأرى انعكاس وجهى ..

فيطالعنى الظل العدمى ..

ـ ماذا تفعل تحت الماء ؟!

أسأله ، ويجيبنى دون صوت أو إجابة :

ـ أنا فى كل مكان يمكننى أن أقترب منك فيه ، وأبتعد ..

ـ حتى هنا ؟!

ـ بالذات هنا ..

ـ فى نقطة الصفر ؟!

ـ فى نقطة الصفر ..

ـ حتى لا تظهر ؟!

ـ كيف أظهر وأنا بلا وجود ؟!

ـ متى أراك ؟!

ـ عندما تكفين عن طرح هذا السؤال ..

ـ أنظر حولى ..

ـ كيف سأعود ؟!

ينظر حوله ..

ـ ستخرجين من نقطة الصفر فى الحال ..

ـ أتلاشى ..

ـ .. لكن تذكرى أن الدخول إلى نقطة الصفر ..

يتلاشى ..

ـ .. ليس كالخروج منها أبدًا ..

تموت الموجودات ، ثم تعود إلى الحياة فجأة ..

★ ★ ★

عدت إلى الحياة فجأة ..

لم يكن كل ما حولى هادئاً ، أو مظلماً ، أو غامضاً .. لم يعد كذلك لو أردت الدقة ..

ما زلتُ مستلقية على وجهى فى أطلال العيادة ، وحولى فوضى الأوراق والمعدات وآثار الزمن الذى التهم نضارة الأشياء ..

اعتدلت محاولة تذكر ما حدث ، دقت مطارق الصداع فى رأسى ، وغمرنى الضوء الباهر عبر النافذة المفتوحة .. آخر ما أتذكره هو أننى انتزعت لوح الخشب الرقيق الذى يغطيها ليلة أمس بيدى هاتين ..

أمس ؟!

بالتأكيد .. إننى الآن فى رأد الضحى ، ساعتى تشير إلى العاشرة صباحاً إلا قليلاً ، هل حقاً قضيت نصف يوم تقريباً نائمة هنا ، أحلم ؟!

نظرت حولى ، الضوء يكشف الكثير مما لم أره بالأمس .. ما زال المقعد الهزاز يتأرجح فى نهاية الغرفة دون أن يكون فوقه أحد .. لا أثر لبطارية تصدر ضوءاً .. هناك سرير كشف

متداع خاص بأمراض النساء .. علب أدوية فارغة متناثرة .. دولاب زجاجى مهشم .. مقاعد لفظت وسائدها .. الأوراق متناثرة من حولى بغزارة .. تحمل أسماء أمهات يمتلكون وأطفال .. ميزت من بينها سجل طفل يدعى (لؤى عونى) تمت ولادته بطريقة طبيعية ، لكنه كان زائداً عن وزنه الطبيعى قليلاً .. أسماء أخرى أجهلها والكثير من العناوين .. هذه المعلومات كنز قد يمكننى استغلاله ، لو أن باقى الأطفال يمتلكون قدرات خارقة أخرى ..

رجال (إكس) المصريون .. ياله من عنوان سخيف لتحقيق صحفى مخيف !

الضوضاء المنبعثة من أسفل لم تساعدنى على التركيز ، أضف إلى ذلك الصداع الذى يقتلنى قتلاً ، فنهضت مستندة على حافة النافذة ، وبعينين اخترقهما ضوء الشمس استطعت أن أرى ما حدث بالأسفل أمام مدخل البناية ..

عمال كثيرون .. شاحنة صغيرة يفرغون ما بها من شكائر أسمنت وصفوف طوب أحمر .. البعض بدأوا فى خلط الأسمنت والبعض يصفون الطوب أمام المدخل .. هناك سيارة من طراز لم أتبينه ، يجلس فى داخلها رجل تغطى رأسه نصف كرة معدنية

صفراء ، من التى يضعها المهندسون فوق رءوسهم فى مواقع العمل الميدانية ، وقد تدلت قدماه خارج السيارة فى جلسته المستريحة ..

ماذا يفعلون ؟!

هل ؟!

لا وقت للتساؤل ، على أن أنهض على الفور وأنفض عن ملابسى غبار المكان (رباه ! كم أبدو بشعة !) ثم أخرج على الفور ..

بى طاقة أجهل مصدرها ، اجتزت صالة الشقة ـ كانت مكان لتنظر المرضى على مايبدو ـ ورأيت المشنقة تتدلى فى وضوح من السقف ، مثبتة إلى السقف فى موضع مصباح كهربى غير موجود ..

هبطت الدرجات بسرعة .. داهمتنى الرائحة القوية عند المدخل لكنى لم أهتم ، قفزت عبر المدخل إلى الشارع تلاحقنى نظرات العمال وهمساتهم التى أسرّوها لبعضهم .. لم أهتم من جديد فقد كنت أقصد ذا القدمين المتدليين خارج السيارة التى أجهل طرازها .. وعندما اقتربت لاحظت إنه منهمك فى كتابة شىء ما بقلم ما على ورقة ما فى دفتر ما !

ـ مساء الخير .. أعنى ، صباح الخير ..

نطقت بها وأنا أتقدم منه فى جرأة ، وتبينت ملامحه الهندسية عندما أطل برأسه من السيارة ناظرًا إلىّ وإلى ملابسى فى استغراب :

ـ صباح النور .. كيف يمكننى خدمتك يا آنسة ؟!

لا تنقصنى الجرأة عندما أقرر أن أكون جريئة ، حتى لو كان مظهرى يليق ببائعة مناديل ورقية فى إشارة مرور مزدحمة :

ـ ماذا تفعلون هنا ؟!

نظر إلىّ عاقدًا حاجبيه فى استنكار ، ففسرت قولى مشيرة إليها :

ـ .. أعنى .. هل هو أمر يتعلق بهذه البناية ؟!

سألنى فى ريبة هجومية ـ لامبرر ولاداعى لها ـ وحاجباه ينعقدان أكثر :

ـ من تكونين ؟! وماذا تريدين ؟!

ابتكرت قصة فورية :

ـ فى الحقيقة .. كانت لدى صديقة تسكن هنا ، وقد جئت أمس لزيارتها ولكن .. أنت تعرف هذه الأمور بالطبع .. لم أجدها .. و .....

لم يكن هناك داعٍ لحرف العطف الأخير إذ لم أجد ما يقال بعده .. لكنه لم يجدني أمثل خطرًا ما على ما يبدو ، فارتخى حاجباه قليلاً وهو يسألني :

ـ يبدو أنك لم تقابلي صديقتك هذه منذ فترة طويلة ..

أومأت برأسي قائلة في ثقة تشوبها المغالاة :

ـ هذا صحيح .. كنت مسافرة خارج البلاد ..

هزّ رأسه قائلاً في تفهم له ما يفسره :

ـ مفهوم .. مفهوم .. إن البناية خالية من السكان منذ ما يقرب من عام تقريبًا ..

أثار قوله اهتمامي :

ـ حقًا ؟! تُرى ما السبب ؟

نهض واقفًا ، وخلع واقي الرأس المعدني الأصفر قائلاً :

ـ تضاربت الأقاويل وتاهت الحقيقة .. بدأ الأمر تدريجيًا عندما خلت الشقق واحدة تلو الأخرى ، في الغالب لم يجد السكان راحتهم مع كل ما كان يحدث ليلاً ..

توترت وأنا أتساءل :

ـ و .. ما الذي كان يحدث ليلاً ؟

قبضت أصابعه على القلم في يده ، وهو يروي :

ـ كل ما يخطر على بالك من منغصات مزعجة ومخيفة .. أصوات لا مصدر لها .. أبواب تنفتح وحدها وتنغلق وحدها .. المصابيح تنير وتنطفئ وحدها .. الحيوانات تموت دون سبب عند اقترابها من البناية .. الأثاث يتطاير من الشرفات .. سمعت أن أحد السكان ادعى أنه استيقظ يومًا ليجد المطبخ في مكان الحمام ، والحمام في مكان غرفة النوم .. لدرجة أنه وجد نفسه نائمًا في حوض الاستحمام !

قال العبارة الأخيرة في سخرية ، بينما استحوذت قصته على كل حواسي ، فلم أبتسم حتى ..

ـ .. لم يبق في البناية كلها حتى شهور قليلة سوى عيادة طبيب أصر على البقاء ..

كان سيكمل القصة ، لكني قاطعته سائلة :

ـ وهل ستهدمونها ؟!

زفر بقوة قبل أن يقول :

ـ ليتنا نستطيع !

أدهشني قوله :

ـ لماذا ؟! هل يرفض مالكها هدمها ؟!

لكن ما قاله بعدها أدهشنى أكثر :

ـ بالعكس ، إنه ينتمى حتى يريح رأسه من عناء امتلاك كارثة كهذه .. لكن البناية نفسها تأبى أن تنهدم !

ـ ما زلت لا أفهم ..

ـ أكثر من مرّة نأتى بمعدات الهدم ، لكن الجرارات تتعطل ، والعمال يصابون بإغماءات غير مبررة .. لقد فقدنا عاملين فى الشهور الماضية ..

هذا كثير بالفعل ..

ـ رباه .. وماذا ستصنعون الآن ؟!

سألته فى رعب حقيقى ، فأجاب مشيرًا إلى المدخل والعمال :

ـ سوف نقوم بسد جميع منافذها .. النوافذ أولاً والشرفات ، ثم الأبواب ، ثم المدخل الرئيسى ، هكذا اتفقنا مع المالك ..

نظرت إلى حيث يشير متسائلة فى وجل :

ـ وهل تظن أن هذا سيصلح ؟!

هز كتفيه قائلاً فى استهانة :

ـ سيمنع الدخول إليها والخروج منها على الأقل ..

ومع استهانته سقط القلم الذى يمسك به على الأرض ، فانحنيت بحركة لا إرادية حتى أمسك به ، وأنا أفكر فى أن عبارته تتشابه مع ما قيل لى عن نقطة الصفر من ...

قبضت على القلم ، ودارت الدنيا من حولى فى لحظة خاطفة ..

★ ★ ★

ـ مضى نصف الوقت ، من يريد تسليم ورقته ليسلمها الآن ..

ـ (حسان) .. إجابة السؤال الإجبارى .. بسرعة ..

ـ لا أستطيع ..

ـ انهض أيها الطالب ، وأعطنى ورقة إجابتك ..

ـ ماذا الذى حدث يا حضرة المراقب ؟!

ـ تم ضبط الطالب (حسين إبراهيم معروف) يغش يا سيدى ..

ـ افتح له محضر غش على الفور ..

ـ لم أفعل شيئًا يا أستاذ .. لن أفتح فمى ..

ـ اخرس ، إنه امتحان ثانوية عامة وليس ناديًا للحوار ..

ـ ضاع مستقبلى ..

★ ★ ★

ـ (حسين) ، أحتاج قلمًا بسرعة ..

ـ خذ ..

ـ شكرًا يا أخى الحبيب ، غدًا نتيجة الثانوية العامة أليس كذلك ؟!

ـ بلى ..

ـ الأول على الجمهورية إن شاء الله !

* * *

سمعت كل شيء ، وكل شيء رأيت ..

فى لحظة خاطفة !

ـ أشكرك يا آنسة ، لم يكن هناك داعٍ لـ .....

قاطعت المهندس ـ الذى ابتسم فى امتنان ـ وأنا أنهض لأناوله قلمه :

ـ هل لك أخ اسمه (حسين) يا باشمهندس ؟!

صمت وتلاشت بسمته ، قبل أن يجيبنى متسائلاً فى دهشة :

ـ هل تعرفينه ؟!

قلت وأنا أمسح جبهتى بكفى :

ـ إنه ينتظر نتيجة الثانوية العامة اليوم .. أليس كذلك ؟!

أجابنى وقد تضاعفت دهشته :

ـ بلى ..

لا أصدق ما يحدث لى :

ـ أنت تتمنى أن يكون هو الأول على الجمهورية ، لكن ..

نظر فى وجهى مأخوذًا :

ـ لكن ؟!

ـ لا شيء ..

مضيت راكضة من أمامه ، باحثة عن أى وسيلة مواصلات ، وفى عقلى تدور العبارة :

الدخول إلى نقطة الصفر ليس كالخروج منها ..

ليس كذلك أبدًا ، واسألونى أنا !

* * *

٧ ـ ما كنت أخشاه !

تراجع (هشام) فى مقعده ، ونظر إلىّ كما ينظر طفل إلى الغوريللا فى حديقة الحيوانات ، وتمدد الصمت بيننا قبل أن يقول فى جمود :

ـ إنه مستوى جديد تمامًا يا (نسرين) !

تحفزت فى جلستى إثر تعليقه غير المتوقع على قصتى ، وتساءلت فى تعجب :

ـ مستوى جديد ؟؟!

انفجر كقنبلة يدوية :

ـ من الجنون .. أنت تدفعيننى نحو الحافة بتصرفاتك غير المسئولة هذه ..

أجبرنى على اتخاذ ساتر دفاعى :

ـ تصرفاتى مسئولة تمامًا ..

انفجر مرة أخرى متحولاً إلى قنبلة عنقودية :

ـ أى نوع من المسئولية تقصدين ؟! كيف تواتيك القدرة على المبيت خارج بيتك دون أن تكلفى نفسك عبء إخبار أى مخلوق عن مكانك ؟!

فى هذه أعلم إنه محق ، وأننى مخطئة بالتبعية ، لكن هذا لم يكن بيت القصيد ..

ـ ليس هذا وقت العتاب أو الحساب .. سيكون لدينا الكثير من الوقت لهما فيما بعد ، أما الآن فـ ...

قاطعنى كرصاصة :

ـ أما الآن فأنت لاتدخرين جهدًا فى سبيل إقناعى بأننى فى طريقى للزواج بفتاة غير طبيعية ذات قدرات خارقة تتجدد دائمًا ..

أربكنى هجومه للحظة لكننى سارعت بالتماسك :

ـ أنا لا أدعى ، حادثة القلم هذه حقيقة !

أشاح بيده قائلاً فى انزعاج لا يستحقه الموقف ، أو لعله يستحقه :

ـ ربما كانت هلاوس مرت بك بعد لقائك بالطبيب المجنون ليلة أمس ، إنك لم تتأكدى من صحة ما ترينه وتسمعينه بعد ..

أفرزت غدة العناد الكثير من :

ـ لكن الأسماء والحوادث ..

عادت انفجارات (هشام) تدوى فى أذنى :

ـ (نسرين) من فضلك ..

لكنى لم أرحمه :

ـ طوال الطريق إلى هنا وأنا أعلم كل شىء عن أى جسم ألمسه .. عرفت كم شخصًا من قبلى فتح النافذة الخلفية لسيارة الأجرة التى وجدتها حتى هنا .. كم شخصًا جلس على الأريكة الخلفية لنفس السيارة .. كم شخصًا لامست يداه باب غرفتك هذه منذ الصباح .. كم ..

انفجارات أكثر ..

ـ (نسرين) .. هذا كثير .. أخبرتك أنك تدفعيننى نحو الحافة !

بلا رحمة :

ـ يمكننا أن نتأكد بطريقة أكثر عملية لو أن هذا غير كاف ..

هنا دلف جندى يحمل صندوقًا إلى الغرفة ، قائلاً :

ـ أحراز القضية يا (هشام) باشا ..

حزنت لكونى السبب الذى جعل (هشام) ينفجر فيه دون ذنب جناه :

ـ ضعها هنا وأغرب عن وجهى أيها الـ ....

ما من لزوم لذكر السبة ، المهم أن الجندى أدرك الحالة المزاجية البالغة السوء للباشا المقدم فوضع الصندوق فوق مكتبه فى صمت ، وخرج فى صمت ..

نظرت إلى الصندوق وسألت :

ـ أهذه أحراز القضية التى كنت تحقق فيها بالأمس ؟! تلك القتيلة التى تدعى ....

قاطعنى وأسنانه تكاد تتحطم انضغاطًا :

ـ (منة عبيد) .. هى !

لم أبال بلهيب غضبه الذى يلفح وجهى ، وسألت :

ـ هل كانت (نيروز) محقة فى رسمها الثانى ، ذلك المتعلق بالخادمة ؟!

نفث صهدًا ، قبل أن يقول دون النظر نحوى :

ـ أجل ، كانت محقة .. وجدنا الخادمة فى دارها مقتولة كما رسمتها تمامًا !

كما توقعتُ إذن ..

ـ وهل قبضتم على القاتل ؟!

عاد (هشام) يزفر ، ثم قال :

ـ أصابع الاتهام تشير نحو الزوج ؛ زوج القتيلة (منة) أعنى .. (عارف وهدان) .. لقد استجوبناه بالأمس وكان منهارًا ، ولكننا وجدنا بصمة له على السكين الذى قتلت به الخادمة ..

سألته فى ارتياب :

ـ هل اعترف ؟!

هزّ رأسه نافيًا :

ـ ليس بعد ، لكن السيد (عارف) هو كل ما نملك الآن ..

نهضت واقفة ، واقتربت من صندوق الأحراز قائلة :

ـ يمكننى أن أتأكد بطريقتى الخاصة ..

قطب (هشام) وتساءل ناظرًا إلىّ بعد كثير من التجاهل :

ـ ماذا ستفعلين ؟!

أخرجت من صندوق الأحراز سكينًا ملوثًا تم حفظه فى كيس بلاستيكى ، وقلت :

ـ هذا سلاح الجريمة الثانية ؟!

هزّ رأسه بالإيجاب وهو يرمقنى ، فيما أغلقت أنا عينى .. وحلقت بعيدًا ..

* * *

ـ ناولنى السكين يا (حنفى) ..

ـ تفضل يا سيد (عرفان) .. ماذا ستصنع لنا اليوم ؟!

بيتزا فواكه البحر .. سأجعلكم تذوقون اليوم أجمل ما يمكن أن تذوقوه فى الدنيا ..

ـ لا تؤاخذنى يا سيد (عرفان) .. ما سر ولعك بالمطبخ إلى هذا الحد ؟! إنه عمل النساء ولا مؤاخذة !

ـ هواية يا (حنفى) .. هواية ..

* * *

ـ (توحيدة) .. أنت يا امرأة ..

ـ نعم يا (حنفى) .. ماذا هناك ؟!

ـ هل خرجت من المنزل دون علمى ؟!

ـ كلا .. لقد اتفقنا على ألا أخرج حتى تأذن لى ..

ـ رآك البعض فى الحارة ..

ـ لم يحدث

ـ بل ذهبت إلى الشرطة أيتها الخائنة لتشى بى هناك .. وتقولين لهم إننى أنا الذى قتلت سيدتك التى تحبينها .. أليس كذلك ؟

ـ لم يحدث هذا يا (حنفى) .. أقسم لك أن ...

ـ قالوا للص أحلف .. ستنالين جزاءك الذى تستحقينه يا (توحيدة) ، كما نالته سيدتك الثرية التى رأتنى أحاول سرقة مجوهراتها ..

ـ (حنفى) .. لاتفعلها أرجوك ..

ـ الوداع يا (توحيدة) ..

★ ★ ★

عدت بسرعة ، فى لمح بصر خاطف ..

انفتحت عيناى فجأة ، ورأيت (هشام) فى جلسته لم يتزحزح أنملة ..

لم تمر إلا ثانية أو أقل كما تشير ساعة الحائط خلفه

ـ ماذا ؟ هل أخبرتك السكين باسم القاتل ؟

سألنى (هشام) بنبرة شابها بعض التهكم ، فأجبت على الفور كأنى لا أنتظر السؤال :

ـ (حنفى) !

تبخر التهكم من لهجته ، وحل محله الاهتمام البالغ :

ـ من ؟

ـ زوج (توحيدة) الخادمة القتيلة ..

اندهش (هشام) :

ـ كيف عرفت اسمها ؟! واسمه ؟!

نظرت إليه مليًا قبل أن أقول :

ـ كان هذا السكين فى المكان الذى استخدمه (عرفان) منذ فترة قريبة فى صنع البيتزا ، ويبدو أن (حنفى) قد أخذ هذا السكين بالذات لتتوجه أصابع الاتهام نحو (عرفان) ..

ذهل (هشام) :

ـ إننا نبحث عن (حنفى) هذا بالفعل ولم نجده حتى الآن !

قلت فى آلية :

ـ هو أيضًا قاتل (منـة عبيد) التى رآتـه يحاول سرقة مجوهراتها ..

نظر (هشام) إلى السكين فى يدى مغمغمًا :

ـ السكين أخبرك بكل هذا ؟!

تركت السكين فى كيسه يهوى داخل الصندوق ، وارتميت على المقعد المقابل للمكتب مغمغمة أنا الأخرى :

ـ هل صدقتنى الآن ؟!

تنهد عميقًا قبل أن يقول :

ـ لا أدرى .. تحريات القضية سـوف تفصل فى هذا الأمر ..

استدرت نحوه قائلة فى تحد :

ـ سأثبت لك ما أقول بطريقة لا تقبل الشك ..

وقبضت على قداحة ذهبية يستخدمها فى إشعال سجائره ، متابعة :

ـ دعنا نرى ما الذى ستخبرنا به هذه القداحة ..

أغلقت عينى بينما كان هو يهتف :

ـ لا .. ليست هذه .. ليست هـ .....

وحلقت بعيدًا ..

* * *

ـ حتى تتذكرنى بها ..

ـ ليس من عادتى قبول هدايا من أحد ..

ـ لكنى لست أى حد ..

ـ لكن ..

ـ أعلم أنك مرتبط ، ولكنـك لا تبدو مولعًا بخطيبتك إلى هذا الحد يا (هشام) !

ـ أنا أحبها ..

ـ رأيتها أكثر من مرة من بعيد ، إنها ليست من النمط الذى يناسبك على الإطلاق ..

ـ ماذا تعنين ؟!

ـ غير مهتمة بأنوثتها أو أناقتها ،فتاة كهـذه لن تجيد الاهتمام برجل ..

ـ صدقينى يا (ماهيتاب) ، أحبها ولا أدرى لذلك علاجًا ..

ـ أراهن أنها تلح عليك للإقلاع عن التدخين ..

ـ وهل هذا أمر سيىء ؟!

ـ المحب يدلل محبوبه ولا يقسو عليه ، مثلما أمنحك الآن هذه القداحة ..

ـ أشكرك على أية حال ..

ـ إنها عربون الصداقة التى سوف تجمع بيننا ، وربما ما هو أكثر منها !

* * *

عدت بسرعة ، فى لمح بصر خاطف ..

كان (هشام) ما زال يصرخ محاولاً منعى ، وقد مال يجذعه كله عبر المكتب :

ـ ليست هذه !

تركته يأخذ القداحة من يدى ، وظللت أحدق فيه ذاهلة ..

أنت يا (هشام) ؟!

أنت وهذه الشقراء الفاتنة اللعينة ، التى ترتدى ملابس أقل ما يقال عنها أنها فاضحة ، تتحدثان عنى بهذه الطريقة التى لا أجد لها الوصف المناسب ؟!

(.. أحياناً أشعر إن (هشام) سيصادف امرأة أخرى تعوضه عن الرومانسية الغائبة فى حياته معى ، لكنى دائماً أتناسى هذا الشعور وأتجاهله ..) ..

هذا ما كنت أخشاه ..

إنها اللحظة البغيضة التى تجد نفسك فيها وجهًا لوجه مع أسوأ مخاوفك الدفينة ..

أطرق (هشام) ناظرًا إلى الأرض فى خجل ، بينما اختبأت أنا خلف جدار من الصمت الشفاف ، وجمدت كلوح من الثلج المغلى !

ودون أن أشعر نهضت ..

دون أن أشعر فتحت الباب واجتزته ..

دون أن أشعر غادرت مبنى المباحث الجنائية ..

دون أن أشعر أشرت لسيارة أجرة ..

دون أن أشعر فكرت :

لماذا لم يحاول (هشام) أن يستوقفنى حتى ؟!

* * *

٨ ـ صمت القبور..

فور عودتى للمنزل أخذت حماماً دافئاً ، ثم جلست أمام المرآة مرتدية مبذلى ، وبدأت فى اكتشاف نفسى من جديد ..

مجفف الشعر أولاً ، ثم بدأت فى لف شعرى القصير على لفافات الشعر التى نادرًا ما أستخدمها .. اتخذت قرارًا بأن أترك شعرى القصير يستطيل ، وبأن أصبغه باللون الأشقر فى أقرب مناسبة .. ربما الليلة !

طبقة من كريم الأساس ، ثم مخفى الهالات السوداء Concealer حول عينى ، لمسة من الكحل الأسود وفوقه ظل العين Eyeshsadow الملون بدرجات البنفسجى .. استخدمت على وجهى اسفنجة تنشر على خدى بودرة التجميل Pan-Cake بتركيز لا أبدو معه مثل مهرج السيرك ..

وضعت فى أذنىّ قرطين طويلين ، ثم اتجهت إلى الدولاب فأخرجت ثوب سهرة لم تأت المناسبة التى تجعلنى أرتديه بعد ، فردته على سريرى ، ثم شرعت فى ارتدائه ..

وقفت أمام المرآة .. تركت شعرى ينسدل على مؤخرة عنقى .. وضعت حول عنقى عقدًا ذهبيًا .. ارتديت بعض الخواتم والأساور .. وضعت بعض العطر الباهظ الثمن الذى أتركه لمناسبات لا تجىء أبدًا .. وضعت بعض أحمر الشفاه

بعد أن حددت شفاهى بقلم خاص .. قلبت شفتى أكثر من مرة .. ثم اللمسة الأخيرة .. حذاء (سندريلا) اللامع ..

وقفت أمام المرآة لأرى فتاة لا أعرفها ..

النسخة الأنثوية من (نسرين الجبالى) ، وبرغم أن العبارة قد أرضت غرورى ككاتبة ، إلا أنها أحزنتنى بصفة شخصية ..

هذه الأنثى كانت فى داخلى ، وأنا كنت أجاهد لحبسها وكبتها باذلة أقصى استطاعتى من الجهد ..

ماذا الآن ؟!

لا شىء ، لست فى النهاية ـ من ناحية أخرى منطقية ـ سوى مجنونة تضع زينة كاملة ، وترتدى ثوب سهرة فى منتصف الظهيرة !

هكذا خلعت الثوب وزينتى وحليىّ الذهبية .. غسلت وجهى وجلست أمام جهاز الكمبيوتر أبحث فى شبكة المعلومات العالمية عن بعض التفسيرات لما يحدث منذ الأمس ..

أولاً : نقطة الصفر Zeropoint .

من وجهة نظر فيزيائية ، يشير المصطلح إلى اهتزازات عشوائية إلكترومغناطيسية تتبقى فى الفراغ بعد أن تتم إزالة كل أنواع الطاقة الأخرى ..

يفترض الباحثون أنه إذا أزيلت كل الطاقة والمادة والحرارة

والضوء الموجودة فى مساحة ما ، فإن بعض الطاقة سوف تظل موجودة .. يعود تفسير هذا إلى مبدأ عدم التأكد فى فيزياء الكم الذى يقتضى ضمنًا أنه من المستحيل أن نصل إلى حالة صفر مطلق من الطاقة ..

نفس القاعدة تنطبق على موجات الضوء فى الفضاء .. لكل تردد من الضوء ، سواء الذى نراه أو الذى لانراه ، هناك كمية من الضوء يستحيل وصولها للصفر .. فإذا ما جمعنا طاقة هذه الترددات المختلفة معًا سنجد أن كمية الطاقة فى مساحة ما هائلة ، بحسابات رياضية غير بسيطة ، بالطبع سنجد أن هناك كمية من الطاقة فى حجم يساوى فنجان من القهوة ، تكفى لكى نغلى بها محيطات الأرض ..

مجرد فنجان صغير من القهوة !

من وجهة نظر أخرى فإن نقطة الصفر هى أحد المصطلحات الدالة على (الطاقة الرقيقة) ، من ضمن عدة مصطلحات أخرى مثل (تشى Chi) ، (برانا Prana) ، (مانا Manna) ، (إيثير Ether) ، (أرجون Orgone) ، (البيومغناطيسية biomagnetism) وغيرها .. معنى الطاقة الرقيقة أو Subtle energy ، هو الوسط الذى يتفاعل من خلاله الوعى مع عالم المادة وعالم الطاقة .. وبعيدًا عن المسميات ، ربما يساهم هذا فى فهم الكثير من الظواهر التى لا يفسرها العلم التقليدى ..

ثانيًا : التعرف على هوية وتاريخ الأشياء باللمس Psychometry

صك البروفيسور الأمريكى (جوزيف بوكانان) هذا المصطلح اللاتينى فى عام ١٨٤٠م ، مستخدمًا المقطعين اليونانيين Psyche الذى يعنى الروح و Metron الذى يعنى القياس ..

أجرى (بوكانان) بعض التجارب على طلابه فى كلية الطب ، ووجد أنه عندما يعطى طلبة معينين قنينة من دواء لايعلمون ماهيته ، فإنهم يبدون بعض ردود الفعل وكأنهم قد تناولوا الدواء بالفعل .. وهكذا خرج (بوكانان) بنظريته التى تنص على أن كل جماد يشع بإشعاعات معينة .. هذه الاشعاعات تحوى سجلا تاريخيًا للشىء نفسه ، وقد آمن الرجل بأن الأشياء الجامدة تسجل الأحاسيس والانفعالات ـ وربما المشاهد التى تجرى حولها كاملة ـ وإنه يمكن إعادة قراءتها فى عقل من يملك هذه الموهبة ..

انطباعات ملك الموهبة يمكن أن تظهر فى هيئة مشاعر ، أصوات ، روائح ، طعم ، أو صور جامدة أو متحركة ، أو مزيج من هذه الحواس معًا ..

تكون الرؤى سريعة جدًا بطبيعتها ، ويمكن أن تحدث بدون رابط منطقى ..

ثالثًا : البارا سايكولوجى Parapsychology

هو العلم الذى يختص بدراسة قدرة العقل على أداء أفعال غير طبيعية ، وينقسم إلى فئتين عريضتين :

• الإدراك الحسى الفائق ExtraSensory Perception (ESP)

ويتضمن التخاطر عن بعد Telepathy ورؤية أشياء بعيدة عن مكان وجود الشخص مثل : الأشياء والناس والأحداث Clairvoyance والتنبؤ Precognition ، ومعرفة أشياء فى الماضى دون معلومات سابقة عنها Retrocognition ..

• تحريك الأشياء بالعقل Psychokinesis

وتتضمن العديد من الأنواع أهمها ثنى المعادن والعلاج الروحانى ورفع الأشياء ..

أخذت أقرأ فوجدت الأمر بحرًا واسعًا كأى علم يحترم نفسه ، وله تاريخ مسجل وأقسام فى جامعات محترمة ، وأبحاث أجرتها أسماء ذات وزن علمى لا يستهان به ..

كم مر من الوقت وأنا غارقة فى هذا ؟!

لا أعلم ، لكنى وجدت باب غرفتى ينفتح فجأة ..

ـ صغيرتى لم تشعر بدخولى المنزل على ما يبدو ..

أبى بعد غياب طويل يستحق قفزة وصرخة وعناقًا ..

ـ منذ متى لم نتقابل أيها الكهل ؟!

سألته ضاحكة وأنا أعانقه ، فضحك وقال :

ـ لو كنا نتقابل يومًا لما افتقدتنى بهذا القدر ..

تراجعت برأسى للوراء وقلت فى سعادة لانهائية :

ـ هذه المناسبة تستحق احتفالاً خاصًا ، مثل أن أعد الغداء بنفسى ..

قال مداعبًا :

ـ لا أرجح هذه الفكرة فى ظل وجود ضيف لدينا ..

سألته مستغربة :

ـ ضيف ؟!

فهز رأسه ، ثم غمزنى قبل أن يقول :

ـ ضيف خاص جدًا ..

أستطيع الاستنتاج بسهولة :

ـ (هشام) ؟!

قلتها واضعة يدى حول خصرى ، فأومأ أبى برأسه إيجابًا ، ثم همس :

ـ سأعد لكما الغداء ريثما تتصالحان ..

قلت بلهجة من لا يعجبه الأمر :

ـ لقد روى لك إذن ..

هزّ أبى رأسه فى تفهم ، قبل أن يعاود الهمس :

ـ لو أردت رأيى ، امنحيه فرصة أخيرة ..

زفرت فى ضيق ، لكنى نظرت إلى أبى وحاولت الابتسام قائلة :

ـ لأجل خاطرك فقط يا أبى ..

أشار نحوى بسبابته :

ـ هذه فتاتى ..

ومضى مغلقًا الباب خلفه ، فاتخذت موضعى أمام المرآة وبدأت فى العمل ..

أفسدت زينتى ثلاث مرات فى محاولة الوصول لأفضل صورة ممكنة ، وارتديت كل ما فى صوانى من أثواب نسائية ، مر وقت طويل قبل أن أزيح كل هذه الأثواب جانبًا وأصدر قرارى الثورى :

ملابسى المعتادة ، البنطلون والقميص ، وبدون ذرة زينة على وجهى ..

(... أنا هى أنا ، وهو أحبنى كما أنا ، وخطبنى كما أنا ، وسيتزوجنى كما أنا دون أن يتغير فى الأمر شىء ..)

كان (هشام) يلتهم أطايبه فى الصالة بعد أن مر على جلوسه وحيدًا نصف ساعة ، وانبعثت رائحة طهو أبى من المطبخ ..

جلست أمامه وقررت أن أعذبه بصمتى الطويل ..

والنظرات ..

ـ كيف حالك الآن ؟!

هذا أفضل ما استطاع قوله ، أما أنا فقد قلت فى برود دون أن أكلف نفسى عناء هز الرأس :

ـ بخير ..

سعل فى حرج ، قبل أن يقول :

ـ بالمناسبة ، (حنفى) هو قاتل المرأتين بالفعل ..

لم أرد ، فواصل هو كأنه يحتمى بكلماته من نظراتى التى تلاحقه :

ـ .. قبضنا عليه بعد تحريات مكثفة فى المنطقة التى كان يسكن فيها .. كان يختبئ فى شقة أحد أصدقائه ، وعلمنا من الزوج أنه كان يأتى مع زوجته فى كثير من الأحيان ليعاونها على الخدمة فى منزل القتيلة .. اعترف (حنفى) بأنه كان ينوى سرقة مجوهرات القتيلة بالفعل ، ثم قتلها عندما منعته .. وقد

قرر من لحظتها حبس زوجته ومنعها من المغادرة ، لأنها كانت تعلم بجريمته ، وتصور أنها يمكن أن تدلنا عليه فى أى وقت .. ولعل هذا هو السبب الحقيقى وراء قتله لها ..

التقط أنفاسه بعد أن أنهى استعراض القضية أمامى ، لكنى ظللت صامتة ، وناظرة ..

ـ .. معنى هذا أن قدرتك الخارقة صحيحة يا (نسرين) !

عقدت ساعدىّ أمام صدرى ، وقررت أن أقول :

ـ اسأل القداحة الذهبية التى أهدتها (ماهيتاب) لك ..

استجمع كلماته ليقول :

ـ (ماهيتاب) إبنة خالتى تطاردنى منذ زمن ، وتحلم بالزواج بى منذ كنا أطفالاً !

سألته فى سماجة :

ـ وما الذى منعك من تحقيق حلمها هذا ؟!

أجاب على الفور ، ناظرًا فى عينى مباشرة :

ـ أنت يا (نسرين) .. ما من سبب سواك ..

رغم رقته فى قولها إلا أننى هاجمته :

ـ لماذا إذن تركتها تتحدث عنى بهذه الطريقة المهينة ؟! ولماذا قبلت منها القداحة أصلاً ؟!

تنهد (هشام) قبل أن يقول :

ـ الحرج ليس إلا ..

ـ هذا ليس عذرًا ..

ـ أعلم ، وأعترف بخطئى طالبًا منك الصفح .. أنا آسف ..

لم يفعلها من قبل ، لذا فقد أربكنى للحظة قبل أن أقول :

ـ والقداحة ؟!

وجدته يرفع كم قميصه الرسمى ، ويشير إلى رقعة ملتصقة بذراعه الأيسر قائلاً :

ـ انظرى بنفسك ..

تساءلت مقطبة :

ـ ما هذا ؟!

أجابنى :

ـ رُقع تمدنى بالنيكوتين الذى ينخفض تركيزه تدريجيًا ، حتى تساعدنى على الإقلاع عن التدخين تمامًا ..

استطاع أن يفعلها حقًا وأن يؤثر فىّ بشدة .. لكنى حاولت ألا يظهر هذا على وجهى وأنا أقول :

ـ و (ماهيتاب) ؟!

ناولنى هاتفه المحمول ، قائلاً :

ـ خذى ..

عدت أتساءل مقطبة :

ـ وما دخل هاتفك المحمول بـ ..... ؟!

قاطعنى على الفور :

ـ لو كنت تملكين القدرة بالفعل ، فسيخبرك الهاتف بكل شىء ..

لم أتمالك نفسى ، وابتسمت رغمًا عنى ..

تناولت الهاتف من يده ، وفجأة ..

رحلت بعيدًا ..

* * *

ـ آلـو ..

ـ (هشام) ، منذ متى لم تهاتفنى أيها الـ ....

ـ (ماهيتاب) ، لم أتصل إلا لأخبرك بأمر واحد ..

ـ ماذا ؟! هل انفصلت عن خطيبتك ؟!

ـ كلا .. شىء أكثر أهمية ..

ـ تريد أن تتقدم لخطبتى ؟!

ـ أكثر .. أكثر ..

ـ سنهرب معًا ونتزوج فى مكان بعيد ..

ـ خيالك محدود .. أكثر ..

ـ ستدعونى الآن على الغداء ..

ـ هذا أفضل ما لديك ؟!

ـ (هشام) ، أرجوك .. الفضول سيقتلنى ..

ـ أنت أتفه فتاة عرفتها فى العالم يا (ماهيتاب) ، وظفر (نسرين) يساوى رقبتك ..

ـ ماذا تقول يا (هـ .....

ـ توت .. توت .. توت ..

* * *

عدت بسرعة ، فى لمح بصر خاطف ..

اتسعت بسمتى التى أعطيتها لـ (هشام) ، وكان يستحقها بالفعل ..

ـ ما رأيك ؟!

سألنى فأجبت :

ـ رأيى أنها لن تعاود الاتصال بك ثانيًا ، لو كانت تملك نقطة من دم يجرى فى عروقها ..

قال مداعبًا :

ـ أشك فى كونها تملك شيئًا كهذا ..

قلت فى تحذير :

ـ لو عاودت الاتصال بك فسأرد عليها بنفسى ، وستجد لدى ما تستحقه ..

قال (هشام) فى توسل :

ـ هل أفهم من هذا أنك قد سامحتنى ؟!

قبل أن أهزّ رأسى بالإيجاب رن هاتفه المحمول فى يدى .. نظرت إلى الشاشة بينما قال هو :

ـ يمكنك أن تردى عليها إذا أحببت ..

لوحت أمامه بالشاشة الصغيرة التى تضىء وتنطفئ :

ـ هل هذا هو رقم هاتفها ؟!

هزّ كتفيه ناظرًا إلى الرقم المرتسم على الشاشة :

ـ لقد حاولت الاتصال بى مرارًا من هاتفها ولم أرد ، ربما تجرب الآن الاتصال من رقم آخر لا أعرفه ..

ـ هذا مقنع بالفعل ..

وضغطت زر قبول المكالمة :

ـ .. كيف حالك يا عزيزتى ؟!

ـ كيف حالك أنت يا صغيرتى ؟!

هـو ..

الصوت الأجش الذى يتعمد صاحبه تغييره ..

ـ السيد (س) ؟!

نطقت بها ، فاتسعت عينا (هشام) وهو يهتف مذهولاً :

ـ ماذا ؟! على هاتفى المحمول ؟!

لم أرد على (هشام) ، وأتتنى ضحكة عبر الهاتف ثم الصوت :

ـ ألم يخبرك الهاتف بكونى أنا المتصل ؟! إنك الآن تتفاهمين مع الأشياء بلغتها ..

ألح (هشام) كطفل يحتاج إلى إسكات :

ـ ماذا يريد ؟! ماذا يقول ؟!

وقال السيد (س) عبر الهاتف :

ـ قولى لخطيبك المتلهف إننى لا أتصل إلا لمساعدتك أيتها الجميلة ..

هتفت أنا بلهفة :

ـ كيف ستساعدنى ؟!

ـ سألقاك بنفسى لأخلصك من عذابك ..

تفجرت عيناى بالذهول ، وصوتى أيضًا :

ـ حقًا ستفعل ؟!

ـ أجل ، بشرط واحد ..

مستعدة بالطبع لقبول أى شرط :

ـ ما هو ؟!

ـ أن تأتى بمفردك ..

فكرة الغرض الذى هو مرض ليست واردة مع هذا الرجل الذى ينقذ حياتى دائمًا ..

ـ متى ؟!

ـ عند غروب الشمس ..

عدت أسأله :

ـ أين ؟!

فأجابنى بكلمة واحدة :

ـ المقابر !

ثم ..

* * *

توقف سيارة (هشام) ـ التى تحمل شعار الشرطة على جانبيها ـ عند منطقة المقابر الشهيرة ، حيث البوابات تحمل أسماء الموتى وآيات الترحم عليهم ..

ـ أقترح أن نتقدم قليلاً :

قالها أبى الذى أبى إلا إن يصحبنا إلى المكان الذى اتفق السيد (س) على لقائى فيه ، وقد جاهدت طويلاً لإقناعهما ـ أبى و(هشام) ـ بذهابى وحيدة كما اشترط (س) ، لكنهما لم يقتنعا فى النهاية إلا بحل أوسط ، ألا وهو أن يصحبانى إلى المقابر ، ويتركانى أقابل السيد (س) فى المكان المحدد داخل المقابر وحدى ، علّه يستطيع أن يساعدنى كما زعم بالفعل ..

ـ كلا ، هذا يكفى ..

قلتها وأنا أفتح باب السيارة لأهبط ، بينما يقول (هشام) :

ـ لا أدرى كيف أسمح لك بمقابلة رجل غريب وحدك بعد غروب الشمس ؟!

رفعت بصرى إلى السماء الأرجوانية وقلت :

ـ الشمس لم تغرب كلية بعد ..

وكانت هذه هى القضية ..

قال أبى فى رصانة :

ـ (نسرين) ستعرف كيف تتصرف يا بنى ..

هتف (هشام) فى حنق :

ـ لكن هذا لا يمنعنى من القلق عليها يا عماه ..

نظرت إليهما النظرة الأخيرة لأقول :

ـ لا تقلقا ، سأعود سالمة كما أفعل كل مرة ..

ثم هبطتُ مترجلة ، وسرتُ فى الاتجاه المنشود ..

اجتزت بضع بوابات ، وتقدمت حتى بلغت ساحة واسعة أشبه بميدان صغير يمتد منه طريق غير ممهد إلى حيث تتشابك أغصان كثيفة ؛ النقطة المتفق عليها للقاء المنتظر ..

فى الساحة الواسعة الأشبه بميدان صغير رأيتهم جميعًا ، ملامحهم وجلى ، وقلوبهم تخفق بأصوات مسموعة بعد أن بلغت الحناجر ..

(لؤى) ووالدته .. (نيروز) ووالدها .. حتى (أحمد) ووالدته جارتى .. وأطفال آخرون كل منهم يمسك بيد والده أو والدته ..

كلهم واقفون فى تأهب ، ينظرون إلى حيث تتشابك الأغصان الكثيفة فى نهاية الطريق غير الممهد ، النابع من حيث يقفون ..

كيف أتوا إلى هنا ؟!

من دلهم على ....؟!

رأتنى (كاميليا) فانقلب خوفها شكًا وهى تسألنى :

ـ أنت هنا ؟! هل أنت من اتصل بنا حتى نأتى إلى هنا ؟!

قلت أهدىء من روعها :

ـ أنا هنا لأنى تلقيت اتصالاً من رجل ما ..

قال (عوض) والد (نيروز) فى ارتياب :

ـ الرجل الغامض ذو الصوت الأجش ..

هو من اتصل بالجميع ، لكن لماذا ؟!

قالت (أمانى) جارتى وهى تقبض على كف (أحمد) الصغير :

ـ طلب منى أن أجعل (أحمد) يلقاه بمفرده حتى يساعده ..

تساءلت كأنى أحدث نفسى :

ـ يساعده على ماذا ؟!

قال أب يمسك بيد ابنه :

ـ ظننت أنه يغنى إنقاذ ابنى من قدرته الغريبة على تحريك ألعابه بعينيه !

ورفعت أم يد ابنتها قائلة :

ـ وابنتى من مقدرتها على التحدث مع قطتها !

وقال أب ثالث :

ـ وابنتى من قدرتها على ثنى الملاعق والشوك والسكاكين ..

قالت (كاميليا) متحاشية النظر إلى صبيها الصامت ينظر :

ـ جمعينا نريد أطفالاً طبيعيين مثل باقى البشر ..

أيدتها (أماتى) :

ـ نعم ، نريد حمايتهم من عذاب أن يكونوا خارقين ..

قال (عوض) :

ـ لذلك قبلنا أن نجعلهم يلقون هذا الرجل دون صحبتنا ، بين القبور ..

قلت وقد استوعبت الأمر على نحو لا بأس به :

ـ ليكن .. سأصحبهم للقاء هذا الرجل الغامض ..

قال أحد الكبار فى خوف :

ـ لكن ....

قاطعته قبل أن يخيف الباقين :

ـ لقد تلقيت اتصالاً من نفس الرجل ليشفينى من نفس ما يعانى منه أبناؤكم ..

شاع الفضول فى بعض العيون ، لكنى تجاهلته وفردت ذراعىّ أمام الجميع هاتفة :

ـ هيا ، اتبعونى يا شركائى فى المعاناة ..

تقدمت نحو الطريق غير الممهد ، وترك الكبار أطفالهم يتبعونى على نفس الطريق ..

الغروب ، والأغصان الكثيفة ، وصمت القبور ..

وفتاة جاوزت العشرين تتقدم عصبة ممن لم يتجاوزوا العقد الأول من العمر ، فى طريق ينتهى فى المجهول ..

بلغنا الأغصان سريعًا ..

رأيت فى الظلام ـ الذى بدأ يخيم ـ بؤرة ضوء تتوهج .. وتتسع ..

أحاط بى الأطفال حتى التصقنا وأصبحنا كتلة واحدة ..

خلف بؤرة الضوء تحت الأغصان خيّل إلىّ أننى رأيت ظلاما ..

أو ربما هو الخيال والرغبة فى رؤية شىء مماثل ..

انبعثت حولنا ترنيمة آتية من اللامكان ..

ترنيمة حزينة وبطيئة تسحر الآذان والأفئدة ..

والبؤرة الضوئية تتوهج .. وتتسع ..

تتسع ..

تتسع ..

ثم ينفجر الضوء ..

يحيط بنا كريح بيضاء عاتية ، تحملنا فى إعصار إلى البعيد ..

لا يصرخ الأطفال ، ولا أصرخ أنا ..

تعلو الترنيمة حتى تحتوينا بدورها ..

ثم فجأة ..

يخبو كل شىء ..

ولا يتبقى إلا الصمت بين القبور ..

مواسم الرحيل

فرغت السيدة (ألفت همام) من قراءة التحقيق الجديد الذى اخترت له عنوانًا متميزًا : نقطة الصفر ، ثم خلعت عويناتها الصغيرة ونظرت نحوى مليًا قبل أن تقول :

ـ هل كل ما هو مدون فى التحقيق قد حدث بالفعل يا (نسرين) ؟

الأمر عصى على التصديق بالفعل ، ولكن :

ـ نسبة الخيال صفر بالمائة يا سيدتى ..

أسندت السيدة (ألفت) ذقنها على قبضتيها قائلة :

ـ ذهبت إلى المقابر مع الأطفال وهناك فقدتم جميعًا الوعى تحت تأثير ضوء باهر مجهول ..

أكملت عنها القصة :

ـ ثم تأخرنا على ذوينا فقرروا المجىء إلينا ليجدونا على هذه الحال ، ثار الرعب والهلع بينهم بالطبع لكننا أفقنا بسرعة قبل أن يتطوع أحد بطلب الإسعاف ، وعدنا إلى بيوتنا بعد أن شفينا تمامًا من قدراتنا الخارقة !

تنهدت السيدة (ألفت) وشردت بعينيها قليلاً ، بينما تابعت أنا :

ـ بالطبع لم يجد خطيبى ضابط المباحث أى أثر لمصدر ضوء بين الأشجار الكثيفة ، ولم يجد أثرًا لمخلوق حول المنطقة اللهم إلا سكان القبور العاديين ، المستبعدين تمامًا من التورط فى أمور كهذه ..

سألتنى من باب إراحة الضمير :

ـ والأطفال جميعهم بخير ؟

ابتسمت وأنا أجيبها :

ـ جميعهم يمارسون طفولتهم كأفضل ما تكون الطفولة دون أدنى تعقيدات ..

عادت السيدة (ألفت) إلى صمتها والشرود ، بينما أخذت أنا أحاول ملأ الفراغات الصامتة فى الحوار بيننا :

ـ .. أعلم أن الأمر متداخل قليلاً يا سيدتى ، وهناك الكثير من الأسئلة المعلقة التى لا نملك إجابات لها ، إما علاقة السيد (س) بأمر القدرات الخارقة هذه ؟ وكيف شفانا منها ؟!

هل هو المسئول عنها منذ البداية ؟ ما علاقة البناية التى تقع فيها العيادة حيث ولد هؤلاء الأطفال بنقطة الصفر الفيزيائية المزعومة ؟ ثم كيف يمكننى أن أقابل الدكتور (سعد) هذا بينما هو قضى مصرعه منتحرًا على مشنقة

تتدلى من سقف عيادته ، قبل أن ألقاه بشهور طويلة ، إثر نوبة اكتئاب حادة مصحوبة بالهلاوس والنزوع إلى العنف ؟

قلبت السيدة (ألفت) فى أوراق التحقيق ، ثم قالت فى أسف :

ـ الأمر صعب للغاية هذه المرة بالفعل

ابتسمت برغم ضيق خفى تفجر فى قلبى ، وقلت فى لباقة :

ـ لا عليك يا سيدتى .. سأتفهم الوضع لو قررتى ألا تنشرى التحقيق على صورته هذه ..

ران صمت طويل دق قلبى فيه بشدة ، وأعادت السيدة (ألفت) خلاله التقليب فى أوراقى مائة مرة أو أكثر ، ثم هزت رأسها فى النهاية بخيبة أمل وهى تغمغم :

ـ الأمر عصى على التصديق بالفعل ..

كان علىّ أن أستعد لتأشيرة الرفض ، عندما :

ـ .. ولكن ..

.. عندما أشرت بالموافقة على الأوراق :

ـ .. سأراهن على مصداقيتك عند القراء ، وأتمنى أن أربح الرهان ..

قالتها ناظرة إلىّ فى بسمة أم ، وشعرت برغبة حادة فى أحتضانها وتقبيل وجنتها ، لكنى تمالكت نفسى وجاهدت لمغالبة دمعة كادت تفر من مقلتى ..

ـ أشكرك يا سيدتى ..

أجرت مكالمة هاتفية سريعة :

ـ (صلاح) .. سأرسل لك بتحقيق العدد القادم على الفور ..

ثم وضعت السماعة ناظرة إلىّ :

ـ علام الشكر ؟ أنت صحفية مجتهدة وتستحقين التشجيع ..

اتخذت استعدادى للنهوض والمغادرة ، وحاولت البحث عن مزيد من كلمات الشكر والاعتراف بالجميل لأعبر بها عن سعادتى الغامرة ، لكنها سبقتنى :

ـ .. بالمناسبة ، كيف حال والدك ، الدكتور (فاروق) ؟!

لا أذكر ماذا كان ردى ، لكنى حتى هذه اللحظة أذكر أن سعادتى تطايرت فجأة ..

وحتى هذه اللحظة أيضًا ، أجهل السبب !

* * *

[تمت بحمد الله]

شخصية غامضة فى مغامرات وأجواء عجيبة

د. محمد سليمان عبد المالك

نقطة الصفر

مغامرات س

يجب أن تدور مغامرة بهذا العنوان حول نقطة ، ويجب أن تحوى صفراً ما ، هذه قاعدة لا فرار منها وإلا فلن يستحق الكتيب واحداً على الألف مما دفع فيه .. إن أحداثاً لا تتعلق بعنوانها هى ليست من النوع الذى أتحدث عنه فى المعتاد .. وبالمناسبة يمكننى أن أصرح ميدئياً - كأننى أهمس فى أذن قارئى من باب التشويق وجر الأقدام - بأن المغامرة تدور هذه المرة فى عالم الطفولة ..

مطابع
المؤسسة العربية الحديثة

الثمن فى مصر ٢٥٠ مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم
(إنهم قادمون !)